

رواية
سلام الله على عبيدك

محمد السالم



سَلَامُ اللَّهِ عَلَى عَيْنِيكَ

دار تشكيل للنشر والتوزيع، ١٤٣٨هـ (ح)
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السالم، محمد

سلام الله على عنيك. / محمد السالم - الرياض، ١٤٣٨هـ
١٣٦ ص ١٤١ X ٢١ سم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٩٦٨-٥-٦

١- القصص المربية - السعدية أ. العنوان
ديوي ٨١٣، ٠٣٩٥٣١ ١٤٣٨/١٠٠٨٩

رقم الإيداع: ١٤٣٨/١٠٠٨٩
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩٠٩٦٨-٥-٦

تصميم الغلاف: محمد السالم
@iMohammedB

لوحه الغلاف: نورة الزهراني
@iN0rh

تشكيل
TASHKEEL
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution
@Tashkeel

سَلَامُ اللَّهِ عَلَى عَيْنِكَ

رواية

محمد السالم

للمزيد والجديد من الكتب والروايات
زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمعي أحمد

٧٥٠
تشكيل
TASHKEEL
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution

٢٠١٧

مكتبة الرمعي أحمد

إهداء:

إلى كل الذين أحبهم .. وليس ثمة غيرك.

سلام الله على عينيك / بداية الغواية، ومرفأ الأمنيات.
 أيتها العاتكة، لم يف للأطلال عطرُك، ولم أنس يوماً أنك
 رياحي.. فيك وجعي ولهفتي، وعلى ضفاف خاصرتك كانت
 تبرد نيراني. كلما عبرني اسمك في غفلة؛ يتوقف بي الزمن،
 وأغرق في ذاكرتي.. حيث لا يعود للمكان قيمة، وأسافر في
 الأثير! أحاول التقاط إشارة صوتك.. لا أصطاد شيئاً غير
 ضجيج لا يسمن ولا يغني من حنين! ثم أعود إلى جسدي
 بروح ناقصة كأنها وضعت في مكان خاطئ، لم تعرف صاحبه
 من قبل!

أكتب إليك الآن وأنا في حالة اندثار. ليس للكلمات معنى
 حين لا تكون لك، ولست أعرف ما يكتب في امرأة مثلك،
 لكنني من فرط الحنين أعود إلى أغانيها.. أستمع إليها وأنتظر
 أن يأتي صوتك على عجل ليكمل نغمها، ويضعني على حافة
 الطمأنينة كما كان دائماً يفعل.

أَلَسْتَ أَنْتِ مَنْ أَخْبَرْتَنِي ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّ كُلَّ أَغْنِيَةٍ تَحْبِينُهَا هِيَ
رَسَائِلُكَ الصَّغِيرَةُ إِلَى قَلْبِي؟ إِذَا؛ فَمَا لِي الْآنَ أَسْتَمِعَ إِلَيْهَا
وَحْدِي دُونَ أَنْ يَكُونَ لِلْمُرْسَلِ عُنْوَانُ عَوْدَةٍ؟

لَمْ تَكُونِي الْحُبِّ الْأَوَّلِ؛ لَكِنَّكَ كُنْتَ الْحُبِّ الْحَقِيقِيِّ..
ذَلِكَ الَّذِي يَقُولُ: لَيْسَ لِلنَّسِيَانِ بَابٌ، وَكُلُّ مُحَاوَلَةٍ هِيَ مُحَضَّرٌ
احْتِرَاقٍ! لَا بَرْدَ وَلَا سَلَامَ فِيهَا. وَكَيْفَ أَنْسَى! وَوَحْدُكَ مِنْ
زَرْعِ بَذْرَةِ الْحُبِّ فِيّ، حَتَّى نَمَتَ وَتَفَرَّعَتْ أَغْصَانُهَا وَاخْضَرَّتْ
أَوْرَاقُهَا ثُمَّ رَحَلَتْ عَنْهَا فِي خَرِيفٍ لَمْ يَرَأَ بِوَاحِدَةٍ بَاتَتْ
تَسْكُنُهَا

كَأَنَّ الْقَدَرَ يَعَاوِدُ اخْتِبَارِي، يَقِيسُ مَدَى صَلَابَتِي، وَيُرْسِمُ
لِي خُطُوطًا أُخْرَى، غَيْرَ تِلْكَ الَّتِي أَتْلَهَفُ، لِأَعْبُرَ فَوْقَهَا عَلَى
مَحَطَّاتِ الْأَلَمِ وَمِنْ خِلَالِهَا أَدْخُلُ مَتَاهَاتِ الصَّبْرِ. أَنَا الَّذِي
لَا يَحِبُّ لَعِبَةَ الْإِحْتِمَالَاتِ، وَلَا يَسْهَبُ فِي أَحْلَامِهِ.. أَصْبَحْتُ
عَلَى سَبِيلِ اخْتِيَارٍ وَاحِدٍ.. لَا أَحِيدُ عَنْهُ! وَفِي حِلْمٍ وَحِيدٍ لَا
أَرْغَبُ بِأَنْ أُنَالَ غَيْرَهُ/ أَنْ نَعُودَ مَعًا إِلَى الْبَدَايَةِ!

يَتَرَاءَى لِي وَجْهُكَ عَلَى سَحَابَةٍ بَعِيدَةٍ، أَمَدَ يَدَيَّ نَحْوَهَا
وَتَأْبَى أَنْ تَمْطُرَ؛ فَاتَرَجَعَ إِلَى قَوْقَعَتِي كَتَائِهِ لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ
يَجِيبُ نِدَاءَ اسْتِغَاثَتِهِ سِوَى طَيْفٍ يَشَابِهُكَ، يَجَالِسُنِي فِي
صَمْتٍ.. كُلَّمَا حَاوَلْتُ كَسْرَهُ؛ غَادَرْنِي!

هناك، بين الغرباء، كُنَّا غريبين.. وأصبحنا، بعد هذا الحب،
بعيدين.



كل ما قالوه لي أن هناك فتاة جديدة ستصل اليوم إلى مطار
«بريسبين» الساعة الثامنة مساءً، وأنه يتوجب عليّ الذهاب
لاستقبالها كما أفعل عادة كلما وصل طالب عربي جديد
ليبدأ دراسته في هذه الجامعة. أفعل هذا كنوع من الخدمات
المدفوعة من الجامعة لأستطيع سداد رسوم دراستي. يبعد
الطريق من مدينتي «توومبا» إلى «بريسبين» قرابة الساعتين.
لم أرتد شيئًا جيدًا لمن كنتُ بصدد لقائه، وانطلقت في
طريقي مبكرًا. لم تكن الشمس قد غربت بعد، ولا أدري لم
توقفت أمام مزرعة «التوليب» المتاخمة للطريق السريع نحو
«بريسبين». كان هناك شيء مختلف هذه المرة، راودتني رغبة
في الورد وشاب مثلي ليس لديه أحد ليقدم الورد إليه، لا
يوفقه أمام هذه المزرعة سوى القدر. ابتعت وردة واحدة فقط،
ناولتني إياها فتاة كانت تقف أمام المدخل. شكرتها وأكملت
طريقي وأنا أتلَمَسُ منفذًا لرغبتني تلك/ أن أرغب بالحصول
على وردة!

حينما وصلت إلى المطار كانت الساعة تشير إلى السابعة،
تبقت ساعة أخرى قليل وصول الطالبة الجديدة. تصفحت
بريدي أبحث عن اسمها.. وجدته: «ساره عبدالوهاب».
أخذت ورقة وكتبت الاسم بالعربية والإنجليزية. بعد ساعتين
بدأ القادمون بالتدفق من بوابة الخروج، كنت واقفاً بجانب
السياج الحديدي أحمل الورقة أمام وجهي، وأحدق من
خلفها في الوجوه القادمة.. وجوه سعيدة، وجوه مرهقة..
وجوه تبحث عن من ينتظرها، وأخرى تبحث عن عناقٍ يعلن
وصولها إلى الوجهة المنشودة. بعضهم يحصلون على ما
جاؤوا من أجله، وآخرون تخيب ظنونهم.

وجهٌ واحد تعلقت به عيناى، ولا أذكر أنى قد رمشتُ لمرّة
واحدة وأنا أنظر إليه، والمسافة الطويلة التي بيننا لم تكن
عائقاً لأتشبث بجمال خلقه!

كان وجهها لمرآة الكمال، وملامح الحُسن.
سألت نفسي حينها:

- منذ متى لم ترَ وجهًا بهيًا كهذا يا غسان؟
- منذُ خلقت!

كم عامًا مرّ من عمرك؟ وكم عامًا ستستيقظ وحيدًا تحديق
في اللا شيء، تبحث عن شيء يستحق أن تنظر إليه؟

خمسة وثلاثون عامًا، والعمر ساعة إلهية لا تتوقف!
ما زلت أنظر إليها من بعيد.. العالم متوقف تمامًا، عيناى
باتجاه نقطة واحدة!

قد يهطل مطرٌ، أو تشرق شمسٌ، وما أزال أنظر إليها! تعبُ
العمر يخرج من جلدي، وأنسى أيام الوحشة، والبرد، وأبقى
أنظر إليها ممتلئًا بكل رغبة.. دافئ وممتن للحظة.
أحدث نفسي كلما رأيته قلب بصرها بين الحضور.. إلى
أين تنتهي هذه الياسمينه.. من أتى ليأخذها! العالم كله قد
يجمعه هذا الحسن.

هل تبسم لي؟ أم أن من جاء من أجلها يقف خلفي؟
هل تقترب مني؟ أم أن خطواتها لا تزيد بي إلا الدفء؟
إنها تلوح، وتسير باتجاهي، ما يزال العالم متوقفًا! وحدها
تسير، الورقة صارت تحدّ من رؤيتي، أخفضتها، نظرت إليها..
أردت أن أفتح ذراعي وأقول لها: ظمآن!
تقف أمامي أخيرًا، أرجع للوراء، أنتظر أحدًا يقترب منها،
لكنها تقترب مني، تلوح بيدها، تقول:
- أنا ساره.

أقول لها:

- أنتِ ساره؟!

هكذا بدأنا أيتها البعيدة، غرباء تجمعنا محطة توقف،
تلويحة لقاء، كلمة عابرة، ولحظة أبدية تبقى عالقين فيها لا
نبحث عن مخرج، وإن كانت بداية لكل نهايةٍ تجمعنا!
ألم أقل لك أنك أكبر من كل ظنوني؟ وأني وإن أحسنتُ
الظن.. لا أجد روعي تغيب في حب فتاةٍ مثلك؟ حينها
شعرت بالمبالغة في حديثي.. قلت لي: لست أفضل ما يمكن
أن تحصل عليه!

أجبتك: بل أكثر مما أستحق أن أحصل عليه.



لم أحبّ تجاهلك لي في طريق عودتنا إلى المدينة. ولم
أشأ أن أكون مسرفاً في لعب أوراقٍ في لقائنا الأول. أذكر
جيداً انغماسك في شاشة الهاتف. ابتسامتك التي كان يسقط
فوقها ضوء الشاشة، وطريقنا الطويل المظلم لا يترك لي
مجالاً سوى محاولة التلصص على وجهك الفاتن بين الحين
والآخر.

- هل يمكننا أن نحصل على قهوة؟

- سأترقب إن وجدنا محطة على طريقنا.

حسنًا.. هذه كانت أول محادثة بيننا، قصيرة وبسيطة.. لم

تحدثني بلغتك. الإنجليزية هي ما سألتني به وكأنك من الآن
ترسمين حدودًا واضحةً بيننا. لا يهم.. تريدین قهوة، وأنا
أشعر أنني أريدك، وأنتِ قطعة سكرٍ لا قهوة بعدك!

أعود وأسأل نفسي: هل ما حدث حلم؟ أم أنني من إرهاب
وحدثي أفعل أشياء لا تحدث سوى في صالات السينما؟ ماذا
يرمي لي القدر، أي طعم هذه المرة، وهل يجدر بي التفكير
بنهايته لئلا تصفني الحياة كما تفعل عادةً كلما غرقت؟

بعد بضع دقائق.. سألت: سعودي؟

- من الرياض.

أجبتك وأنا أنظر إلى يدك التي تدس الجواز الأخضر
في الحقيبة. أعلم المكان الذي جئت منه. إنه نفس الموطن
الذي ولدت فيه، وتعلمت تقاليد وعاداته حتى أصبحت أحد
المتعثرين.. الذين يخافون ما يختلف عنهم، ويرفضونه وإن
كان جيّدًا! تعلقوا بما لديهم وكأنه كافٍ، وكأنهم لا يحاربون
شيئًا، ثم يتكفل الزمن بتطبيعهم عليه.

مشكلتنا الدائمة أننا نفضل الغرباء، معهم يمكننا التصرف
بأريحية، نظهر الجيّد والسيء فينا كما يفعل بقية البشر بعفوية
دون تحصن من الكلمات وظنون الآخرين.

لكنك الآن تدركين أنني لست غريبًا بما يكفي، وأني سأعود

يومًا ما إلى نفس المكان الذي أتيت منه.

بعض الأشياء تكون أجمل في بعدها، وتفقد قيمتها في نفوسنا متى ما حصلنا عليها!

هذا ما شعرت به من سؤالك، رغم أنك لم تفعلني شيئًا يستحق التهميش حتى الآن، كان بودي أن أسألك عن شيء واحد فقط: كيف خلقت بهكذا جمال!

توقفنا عند محطة على الطريق بعد بضع دقائق من محادثتنا الأولى، عرفت أنك لا تستحسنين أن أتحدث إليك بلغتنا المشتركة، عدت إلى لغة الغرباء. أخبرتك أن تدخلني إلى المقهى المتاخم للمحطة ريثما أعيد تعبئة السيارة بالوقود. نزلت سريعًا وكأنك تتداركين خطأ مفاجئًا.

ركنت السيارة جانبًا بعدما انتهيت مما أفعل، وانتظرتُ عودتك. الساعة تشير إلى العاشرة مساءً، الحياة نائمة في المدينة. الآن، كل ما أريده هو العودة إلى سريرتي، قد أدخن كما أفعل عادة، أو أتصل بعفاف لتسهر معي، لكن لا يبدو الأمر صائبًا بعدما رأيت هذه المخلوقة/ أنت.

قاطعني صوت خطواتك القريبة، ركبت السيارة وفي يديك كوبان قهوة وكيس ورقي مملوء بـ «الدونات». مددت لي كوبًا.. أخذته، وأكملنا طريقنا.

في الطريق قررت أن تتحدثني إليّ، سألتني:

- ما اسمك؟

- غسان.

- كم لك هنا يا غسان؟ أعني في هذه البلاد؟

- خمس سنوات، أتممها الشهر المقبل.

- هذه فترة طويلة.. ألا تحنّ إلى الوطن؟

- ليس هناك من يرغب بالعودة مما يهرب منه.

- تعني الوطن؟

- أقصد أشياء فيه.

جذبك حديث السطور المبهمة. عدلت من جلستك، أصبح جسدك مائلًا باتجاهي. إن الحديث يريحك شيئًا فشيئًا، وكنتُ أمل ألا تكوني ثرثارة! فليس هناك شيءٌ يبدد الجمال سوى لسان لا يتوقف عن الحديث في كلّ أمر يعلمه أو يجهله.

إنك تتحدثين الآن، تخبريني عمّا تنوين دراسته، عن تطلعاتك، عن رغبتك بالبقاء هنا للأبد. كان صوتك يعبرني بنعومة.. خجل يربكك أحيانًا؛ فتعودين لتصغي عبارتك. أخطف نظرة باتجاهك، شعرك عجريّ طويل، عيناك واسعتان.. أسرّتان! أنف دقيق، بشرة سمراء وناعمة كشمس.. الحديث يخرج من شفّتك ببطء، حين تضحكين تبدين أكثر

جمالاً، أتابع تحركات يديك كلما تعمقت في الحديث عن شي ٤٠.

أحدث نفسي في ذات اللحظة.. ماذا لو أنني فقدت عيني قبل أن أرى هذا الوجه؟ أغرق في السواد بذاكرة تحمل وجوهاً بائسة لا تجلب في خاطري بهجةً ولا ارتياحاً.. حينها أكون فقط محاطاً بأشخاص لم أرغب برؤيتهم.

أعاود النظر إليك، أسهر إلى ملامحك.. أقول في داخلي: ليتني أخبرك في عيني قبل أن ينتهي هذا الحلم الجميل.



وصلنا إلى المدينة قبل منتصف الليل، اتجهت مباشرة نحو الحرم الجامعي حيث سكن الطلاب هناك. أخبرتك أننا جهزنا لك غرفة مؤقتة تستطيعين أن تستقري فيها ليومين بلا رسوم.. بعد ذلك يتوجب عليك دفع الرسوم أو اختيار مسكن آخر. أو مات برأسك علامة على الرضا.

وقبل أن أودعك أخبرتك أين قد تجديني في الجامعة متى ما أردت شيئاً. إنه إجراء تقليدي أقوم به مع أي طالب مستجد، ولكن هذه المرة شعرتُ بأنني أريد لقاء آخر مع عينيك. شكرتني وهممت بالذهاب، وما إن وصلت إلى سيارتي حتى

وجدتكِ تلحقين بي، توقفت وسألتكِ عمّا تحتاجينه، قلتِ:
- هل يمكن أن أحصل على رقم هاتفك؟ لا أعرف أحدًا
هنا سواك وأخاف أن أتوه.

لم أمانع، ونقلتكِ رقمي الخاص.

- اتصلي في أي وقت.

وكم وددتُ أن تتصلي!



الواحدة فجرًا في تلك الليلة:

مسلتي على ظهري، أحرق في العدم، جسدي منهك،
أشعر بقدمي ثقيلتين، صمت المكان نهر يجرفني، الوسادة
باردة، والأرق يتربص بي كعادته.

تمرني صور قديمة: وجه أمي، طفل يرافق أباه في حفل
زواجه الثاني، طفل آخر فقد والديه، امرأة يقولون لي: هذه
زوجتك.. رجل يقف عند باب منزل، مكتب طويل أجلس في
آخره وحيدًا، ووجه يحرق في مرآة مكسورة.... إنه وجهي.
أتذكر المرأة، اسمها «نادية»، قالوا لي إنها ستصبح زوجتي،
حاولت الرفض، أقنعوني بأنها الخيار الأفضل، لكني لا أعرفها!
قالوا: «تعرفها مع الوقت».. حسنًا دعوني أراها على الأقل،
«ستراها يوم تصبح في بيتك»، أجابوا!

جاء يومٌ تكون في بيني.. رأيتها، حسناء جميلة، شعرها
القصير داكن ويداعب وجهي كلما احتضنتها، قوامها
المنشوق لا يترك ليلاً يهدأ بي، لكنها باردة، بعيدة عني، تزج
بكلماتها وكأنها تغتصب، لم تنظر يومًا لعيني، كانت تؤدي
واجبها فقط، قلت الأيام تصلح الحال، لكن الأيام أفسدتنا.
مشغولة على الدوام، زياراتها الخارجية كثيرة، تعود لتمسح

وجهها وتغط في نوم عميق، أنظر إليها من بعيد، أظن أنها لم تعد عليّ حتى الآن، سأنتظر، وكلّما انتظرت زادت الفجوة بيننا .

أحجز مقعدين على الدرجة الأولى باتجاه باريس، أقول ستكون فرصة لنقرب، أعود إليها مبتهجًا بما أحمله معي، أخبرها عن الرحلة وتهز رأسها بلا ابتسامة.
هل هنّ بهذه الصعوبة؟ أسأل نفسي.

لم أعرف فتاةً غيرها من قبل، هي الأولى، ولم أكن أنوي على أخرى كما يفعل أبي متى أراد أن يعود لشبابه حسب ما يقول. أذكر الطريقة الذي يتعامل بها أبي مع نسائه، جافة وقاسية، لم ينادِ أمي يومًا باسمها.. «أم سعد» لا شيء آخر غير هذا اللقب، حتى أنني ضحكت خجلًا حين أخبرني أمي باسمها ذات مرة، كنت طفلًا حينها، وظننت أنها «أم سعد» فقط، لا شيء غير هذا الاسم. «سامية» اسم لا يذكره أبي ولا يعرف صاحبه.

حين جاء يوم سفرنا، أخبرني بأنها متعبة ولا تقوى على السفر، ثار غضبي، وقلت لها أننا ذاهبون لا محالة. لم تستمع لكلامي وأقفلت على نفسها الباب. ظللت أناديها، أشتّم أحيانًا، ولكنها لا تجيب.

متعة الحياة في رفيق يتشلك من الحزن، بصاحبك في
عسرك، ويحنو عليك حين تقسو.

لكن حياتي معها مشيرة للشفقة، كلما أردت أن أسعدها
جلبت أسبابًا عديدة للضياع، الخطوة باتجاهها تردها لي
بمسافة أميال نحو الهاوية حيث لا يمكنني أن أصمد أكثر.
قضيت تلك الليلة منبوءًا خارج الغرفة، لم تخرج منذ
الصباح، قلت لها بأني أسامحها، وأنا سنبقى هنا، فقط
اخرجي لي. كلميني! ولم يصل صوتها.

غرقت في النوم على الأريكة، حتى خرجت بوجه أصفر
شاحب. لم أصدق ما رأيته، لا بد أنها تفعل كل هذا لثلا
أكذب خداعها. اقتربت مني، وقالت:

- هل يمكن أن تأخذني للمشفى؟

خرجت بها لمشفى قريب، أردت أن أدخل معها للطبيبة
لكنها رفضت، بقيت في الخارج أنتظر. خرجت بعد عدة
دقائق.. مرت بجانبني ولم تكلمني، تبعها، حتى دخلت
للمختبر.

الجدران هنا بيضاء، الإبرة تمتص دمعها كما لو أنها
بعوضة، الصمت يتمدد بيننا، أكسره وأسأل الممرضة لما هذا
التحليل؟

تجيب: تحليل حمل!

شيء يزاحم صدري، لا أعرف هل أسميه فرحاً أو ترقباً..
شيء يقيني داخل برواز الانتظار متجمداً.

ثلاثون دقيقة، هي ما تحتاجه الآن لتأكيد قدوم كائن جديد
لهذه الأرض، تمضي الدقائق، تجيء النتيجة، إيجابية!
يتعثر لساني بحمد الله.. فرح ينزل عليّ من السماء،
أقترب منها، أخبرها بأنني أحبها الآن أكثر، تنكفي على نفسها،
تبكي.... وتبكي!

انكسرت روحي، ومشيت بجسدٍ خائر.

- ألا تستطيع أن تفهم؟ لست أحبك، لم أحبك مسبقاً، ولن
أفعل مستقبلاً! ألا تفهم معنى أن تختبئ امرأة خلف وسادتها؟
أن تفضل الأماكن البعيدة على أن تكون بقربك؟ أن تتصنع
التعب لئلا تقترب منها؟ هل تعرف ما كنت أشعر به كلما
فقدت أسبابي وجمعتني بك ليلة؟ كنت أبكي، أشعر بأنني
أغضب، وما فوقني ليس إلا بكائن غريب لا أعرفه!
نقول لي لتجيب عن سؤالي الذي يريد أن يفهم أسباب
تكررها من هكذا خبر!

لم أشعر بشيء وقتها، ليس من العدل أن أشعر بحزن أمام ما يفوقه المآل.. ليس من العدل أن أنكسر مرات متتالية من أناس وددت الحياة معهم.

لم يكن قراري الزواج بها؛ فلم يكن ذنبي أنني لست مرغوباً لديها.

لم تزل تمكث عندي بعد مرور يومين ثقلين كنا فيهما نتجنب رؤية بعضنا البعض، نتسلل بخفية في ممرات البيت، ثم نعود لمخابثتنا.

أردت الاتصال بسعد، أخي الأكبر؛ فهذا الثقل الذي يكتم صدري لم أعد أحتمله أكثر! لكن عمّا أخبره؟ عن خيبة؟ عن جرح؟ عن صفة لم أكن أحسب لها حساباً؟ أو عن رجل منهزم فقط؟

تراجعت، وبقيت في فوقعتي لا أنتظر حدوث أي شيء.



ما زلت سارحاً في شريط الذاكرة، صوت تنبيه يصدره هاتفي، مددت يدي والتقطته من فوق الطاولة، كانت رسالة من رقم دوليٍّ أعرف جيّداً مفتاح خطه الذي لم أستخدمه منذ اتصلت بأخي سعد قبل ثلاثة أعوام.

الرسالة تقول:

«هذه الغرفة مظلمة جداً، ضيقة وأسمع صوت شيء يتحرك في فتحة التهوية، أظنه فأراً! أريد أن أجد مكاناً آخر.. هل يمكن أن تساعدني؟ ليس الآن بالتأكيد، غداً إن استطعت.
ساره»



لم يطل الأمر كثيرًا لنقع كسمكتين في شباك الحبّ. كل ما كنا في حاجته هو ذلك الفأر الذي أقلق سكونك في السكن الجامعي، وترحيب «أنثوني» الذي أعيش معه في منزله لتكوني ضيفة الغرفة الفارغة. كنا قد بحثنا في المدينة كلها عن مكان مناسب لتتقلي إليه، وفي كل مرة كنتِ تجدين عذرًا لتمانعي. حين شعرتُ بالتعب من السلالم التي صعدناها والطرق التي عبرناها، عرضتُ عليكِ أن نأخذ استراحة قصيرة على أن نكمل بحثنا بعد ذلك، وافقتِ؛ فذهبنا إلى مكان إقامتي. منزل يطلُّ على جرف وادٍ تتعلق فوقه المدينة، تنفذ إليه الشمس من جداره الزجاجي إلى وسط صالة المعيشة المطلّة على مسبح صغير. منذ تلك اللحظة قررتِ أن تعيشي هنا، معي ربّما، أو مع ضوء الشمس! كانت هناك غرفة فارغة في هذا المنزل الذي لا يسكنه سوى صاحبه «أنثوني» وغريب في رحلة هروب. وفي ذات اليوم، كنا معًا على طاولة العشاء.

بعد مرور أسبوعين، قال لي «أنثوني»:

- انتبه لعينيك.

- ماذا تعني؟

- أعني أنها تفضحك. تقول ما في خاطرك نحوها.

- لا.. الأمر ليس كذلك!

- حقاً؟

ومضى مبتعداً وضحكاته تسبقه.

حينها أدركتُ أن الأمر قد أخذ مني ما لا أستطيع إخفاءه:

اللهفة إليك!

بعد شهر، أخبرنا «أنثوني» أنه سيغادر المنزل لثلاثة أيام في رحلة عمل. طلب مني أن أتولى مهمة توصيلك إلى الجامعة في غيابه.. وافقت.

في صباح اليوم التالي، قبل أن يغادر «أنثوني»، همس لي:

- لا داعي للخوف الآن. أنتما وحدكما هنا، لكن لا تقتربا

من «زجاجتي الحمراء»!

ثم ضحك بقوة.. سمعت ضحكته وخرجت من غرفتك

لوداعه.

- وداعاً ساره.



كان صباحًا باردًا. الخامس من يوليو كما أذكر. طرقت باب غرفتك وأخبرتني أنني سأنتظرك في الخارج.
- حاضر، خمس دقائق فقط وأكون معك.

لم يكن لدي محاضرات في ذلك اليوم، فقط رغبت بأن أتم المهمة في إيصالك للجامعة ومن ثم أعود لسريري. قلبت قائمة الأغنيات أبحث عن شيء يبدد هذا الهدوء إلى أن تأتي. وقع الاختيار على أغنية «لحن قلبي». بعد ثوانٍ قليلة رأيتك تخرجين.. وشاحك الأصفر يطوق عنقك، شعرك يبدو دافئًا من بعيد، تثبته نظارة شمسية تستقر فوقه. يسقط نور الشمس على وجهك فأراك تتوردين. كان الزمان يهرم ويسير ببطء كلما اقتربت أكثر مني. حينها فقط، يا سارتي، قررت أنك لي.

لا يسعني التفكير في أن تكوني لأحدٍ غيري، ولم أكن متأكدًا أن قلبك فارغ من غيري.

لست ممن يقعون في الفخ سريعًا، أحب أن أحلل تحركاتي، أضع أمامي توقعات مسبقة، وأحصي فرصتي. لكن الأمر يختلف معك، أنصاع لقرارات قلبي، وأبتهل كطفل.

- مرحبا!

- أهلا ساره.

وانطلقنا.

لم يكن وداعنا جيدًا حينما وصلنا للجامعة. كنتُ غاضبًا، ولم تفهمي لماذا أغضب من صديق ينتظركِ أمام مدخل الجامعة.

- تعرفينه؟

- تقصد علي؟ نعم أعرفه.

لم أستطع أن أمنعكِ من الذهاب معه، كل ما كان في قدرتي هو التشديد على موعد عودتك.

- الرابعة مساءً سأكون بانتظاركِ هنا. لا تتأخري.

- حاضر.

عدتُ إلى المنزل وأفكار شيطانية تعبت برأسي. ماذا لو أنه أعجبكِ، أعني «علي». ستكون نهاية كل أمل في قلبي. لن أصبح أكثر من صديق جمع بينكم مطار واحد، وسقف واحد، ومائدة صغيرة نمضغ الطعام فوقها على عجل! حينما جاءت الرابعة، كنت بانتظاركِ أمام مدخل الجامعة. رأيت علي يركب سيارته قبل أن تأتي. مرّ بجانبني وألقى تحيةً بابتسامة مقيته. بعد دقائق وصلتِ أنتِ.

- جائعة؟

- جدًا.

على الشرفة الخارجية لـ «جمايكن بلو» جلسنا على طاولة لشخصين. جاءت النادلة «سوزان» وألقت التحية عليّ، وضعت الصحيفة على الطاولة كما تفعل عادة، وسألتكِ عما تفضلين.

- قريلد شيكن.

ثم سألت:

- ألسن جائعًا؟

- سوزان تعرف ما أحب.

ابتسمت النادلة وغادرتنا.

- هل يمكنك الآن أن تخبرني عن سبب سؤالك عن

«علي»؟

- منذ متى وأنت تعرفينه؟

- منذ أول يوم لي بالجامعة. أجدّه لطيفًا، وكان يساعدني

في إكمال أوراق الابتعاث.

- ألم تنته من هذا الأمر؟

- نعم، أرسلت أوراقني قبل أسبوعين.

- إذًا، لم ما يزال يرافقك؟

- لا أعرف! اعتدنا على الجلوس مع بعضنا في الجامعة

حين يكون لدينا وقت فراغ. بالمناسبة، قد أخرج معه غدًا.

دعاني على العشاء.

- لا. لن تفعلني.

- ولماذا؟

- لأنه سيء. سيء فوق ما تتصورين!

- شكرًا، ولكنني لست بحاجة للنصيحة. يكفي أنه جيد

معي. أحمد

لم أكن لأصبر أكثر، أحسست بأنك تضيعين مني يا ساره، شعرت بأن وجهك يتبدل، ينطفئ نوره الذي جال في عتمة قلبي حتى أصبح منارتي كلما تهت في بحر العتمة. لم تدركي بعد كم أنك غالية، بل أغلى ما كان القدر يقدم لي!

- هل أخبرك عما أعرفه عن علي؟ حسنًا، لا شك أنه وسيم المظهر وعذب اللسان. لكنه زير نساء يا ساره. زرتة مرة في منزله، المنزل الذي يتشاركه مع ثلاثة آخرين من نفس المكان الذي أتى منه. لم يتردد في دعوتي لألقي نظرة على لوحة كان يقول بأنه يعمل عليها. صعدت معه إلى غرفته. هل تعلمين ماذا وجدت؟ لم يكن هناك سوى ألوان ملابس داخلية نسائية يعلقها على لوح فليني. نظرتُ إليه متعجِّبا، ضحك وقال: أنوي أن أكملها حتى لا يبقى فيها فراغ! ... أهذا من تريدين أن تصاحبيه؟ أهذا صديق؟

- وهل هذا ما تظنه بي؟ أني سهلة هكذا؟ أني سأكون مجرد قطعة جديدة على لوح علي إن خرجت معه؟
- لا، لست كذلك. أعرف أنك أفضل من هذا يا ساره، وأعرف أن علي أسوأ من أن تكوني بقربه.
- أرجوك، دعني أختار من أريده إن كنت تثق بي حقًا، ولن أنسى نصيحتك.

أردت للوقعة التي تجلس ما في صدري أن تنكسر. لم يعد هناك شيء لأخفيه عنك. الأمر بمثابة قطعة معدنية صغيرة تتقلب في الهواء وفي قلبك صلوات لأن تستقر على الوجه المنشود. وما كنت أنشد شيئًا سوى قلبك! قلت في نفسي: يجب أن أخبرها الآن. لا يمكنني أن أدعها مع علي. حاولت النطق.. ثم تذكرت محاولاتي السابقة في كسر الصمت، المحاولات التي كانت تنتهي قبل أن تبدأ.

عبر في رأسي وجه «نادية». جميلة، ولكنها لم تكن راغبة في الحديث معي، لقد حاولت ما في طاقتي معها من أجل كسب حوار لطيف يخلد في ذاكرتي صوتها، لكنني في كل مرة أفشل. كان الحديث معها أقرب إلى الصمت، يستحيل فيه الكلام إلى حجارة تضرب في باب من زجاج ولا ينكسر! نصمت وكأنها لم تتعلم يومًا أن تتكلم، لا ملامح وجهها تقول

أنها تدرك ما أقول، ولا نظراتها تعي أنني أوجه الكلام إليها.
قلت لها ذات مرة ونحن على طاولة عشاء: «أحبك».
ترقبت ردًا منها لتسرب من فمي الكلمات الحلوة، إلا أنها
اكتفت بشرب كوب مائها وكأن ما سمعته لقمة مُرّة عبرت
ثغرها.

أهذا ما تفعل كلمات الحب؟ لا أدري، كل ما رغبت به هو
إخبارك ما في قلبي. أنني أحبك، وأنتِ تعلمين ذلك بطريقة
ما، إلا أنكِ تفضلين أن أبقى على شفى نار الغيرة أبحث عن
مكانٍ لا يكون به سوانا. تشجعتُ وأخرجت ما كان يثقل
صدري من كلام.

- لكنكِ لا تفهمين الحقيقية يا ساره. نعم، أنتِ لا تفهمين
كيف أتعلق بكِ يومًا بعد يوم. تظنين أنني لا ألتفت إلى
تفاصيلك الصغيرة التي بتُ أحفظها. أغنياتك المفضلة التي
يصلني صوتها ليل نهار. أترغيبين بأن أعددها لك؟ وأنني لا
أستوعب كيف لامرأة واحدة أن تنال ألوان الكون كله في
عينين سوداوين! أصطاد ضحكائك، نغمتها وإيقاعها.. لأخبرها
في صدري، كلما احتجت لسببٍ للفرح أخرجت واحدة. في
الحقيقة يا ساره، أنني واقع في حبكِ لا محالة! وهذا أمر قد
قُضي، ولا أملك أن أغير منه شيئًا. قد أملأ رأسك بالكلام

الحلو حتى تغيب الشمس، ولكنني لن أفعل، سوى أن أخبرك
ما أنا واثق منه جيداً. إني أحبك.

لم تأت منك إجابة. لا أذكر سوى صوت حذاء سوزان
وهي قادمة نحونا حاملة الأطباق، وصوت كرسيك العائد إلى
الوراء ليعلن عن موعد المغادرة.

✱

قلتُ لك في طريقنا إلى المنزل:

- رُبما تسرعت في كلامي. رُبما غضبت أو انتابني شيء من الغيرة.. أو الغباء. سمَّه ما شئت، وأعتذر عن هذا. لن أتسبب بمشاكل لك، أعدك. فور عودة أثنوني سأخبره بأني وجدت مكانًا آخر للمكوث فيه. ابقِ معه أنت. أعلم أن المكان يعجبك، وأثنوني سيهتم بك.

لا يمكن لرجل ألا يفقد أنفاسه حين يرى من يحبها تعبر إلى ضفةٍ أخرى ليست تحت رايته. حينئذ يثور بركان في داخله، يشعر بأغصانه تتساقط ولا حل لمعضلته سوى أن يحاول ألا يسقط بأكمله! تمامًا مثلما كنت أحاول. الآن أعود لأحصي ما تبقى لي من فرص، كلها تشير إلى النهاية. لا بأس، نهاية حاولت بها.

أعلم ما أمر به الآن، هزيمة أخرى يا ساره، هكذا رأيتها. لن تكون هزيمة أولى، سبقك الكثيرون ممن هزموني. ما يزال صوت أبي يتردد في أذني: «أنت أغبى من أعطيك فرصة» يضحك أخي سعد على ذلك؛ لأنه يدرك أن هذا يعني تفرده بأعمال أبي التجارية. ما كان يهون عليّ هو حزن أمي.. كفّها التي تمسح دموعي وتخبرني أن الله يعرف قلبي الأبيض. وأنه، في يوم ما، سيهني كل ما أريده. قد لا يبدو أن هذا

اليوم هو ما كانت تقصده أُمي / أني أخسرك أيضًا. من قبلك
خسرت «نادية». خساره متوقعة، لكن أقسى مما تخليت.



في المساء:

صوت أغانيك كان يصلني. كنت أتساءل: كيف لامرأة أن
تتعلق بالأغنيات وهي بحد ذاتها أغنية إلهية لا أحد يجرو
على صفٍّ ما يشابهها؟!

أردتُ أن أنام، لكن شيئًا في داخلي كان يغني.. لك. كنت
أزداد لهفةً لرؤيتك مرة أخرى، وددتُ لو أدلف لغرفتكَ عنوةً
وأقول لك: انسي. راضي أن تبقى صديقين، جارين، أو حتى
غريبين. لكن أبقى بقربك. أظل أنحتُ صورتك في قلبي،
وأدون تفاصيلك الصغيرة حتى لا يبقى هناك أحد يفهمك أكثر
مني. إنه أرحم من أن نقول: وداعًا.



حين استيقظت على صوت المنبه في صباح اليوم التالي،
وجدت رسالة نصية منك:

(أسميه حبًا...)

ولا تنسَ أن تعوضني عن دعوة العشاء التي لن أذهب إليها.
أريدها الليلة!

*

نستطيع الآن أن نتبرأ من ماضينا! ماضي لم نكن فيه سوى دميّتين تعبشان معاً، تبددان صمت المكان بضحكات طويلة، ويقلبن دقائقهم المعدودة إلى لحظات أزلية يخلدها كل جذع شجرة .

- ساره وغسان؟

- تبغين تفضحين؟

- أكثر من كذا؟ ألا يكفي أننا متلاصقان في هذه الحديقة المزدحمة بالناس؟

أهز رأسي مستسلماً. تفزين وتنحّتين اسمينا، تتألم الشجرة، وأشعر وكأنك تنحّتين اسمك على صدري.

- هذه الشجرة الثالثة.. أليس كذلك؟

- الرابعة تقصدين.

تضحكين من جنونك، وأنا أدون مكان الشجرة في ملاحظاتي. وكنتُ أعلم أن كل شجرة ستكون دليلي إليك في يوم ما.

- ساره ..

- نعم ..

- تعالي هنا.

- أستطيع سماعك. تبقى القليل فقط وأنتهي من هذه الشجرة.

- أمممم.. هل يمكنك تخيلنا معًا في المستقبل؟ أعني هل لنا مستقبل معًا؟ أم أنها الغربة التي لا تبقي لنا شيئًا نبدد به قسوتها سوى الحب؟

توقفت عما كنت تفعلين. كان اسمي لم يكتمل بعد.
(ساره .. غس)

جلست أمامي وطلبت أن أعدل من جلستي. كانت ركبنا ملتصقتين ببعضهما البعض. نظرت إليّ بابتسامة دافئة. كنت تعرفين الإجابة عن سؤالي مسبقًا، لكنك تحاولين البحث عن طريقة غير الكلام.

- انظر لعيني غسان.

نظرتُ إليها، شعرتُ بكل ذكرياتي السوداء تندثر، وأن النور يعبرني بخفة.

ثم أمسكت بيدي. أصابعك تمر عليها بنعومة، تمضي في خطوطها، واحدًا تلو الآخر.

- نادني .. نادني باسمي .

- ساره ..

جذبت يدي نحوكِ بسرعة، وضعتها على قلبكِ وأنتِ
تبتسمين .

- هل تشعر بهذا؟ بنبضات قلبي؟ لا يمكن لقلب أن
ينبض هكذا إلا إن كان حبًا. ليس الآن فقط، كلما ندهت علي
أجابك قلبي قبل أن ينطق فمي. أتخاف أن ترحل منك فتاة
يشعل قلبها صوتك؟ أخبرك بأمر؟ لم آتِ إلى هنا لأبحث
عن الحب، كان لدي غاية أسمى إليها، وأدرك الآن أن غايتي
لم تكن سوى أن أتورط بك، وأن أتوه ما بين ما أريد وما لا
أريد. حين أفصح لي عن الحب الذي يسكنك تجاهي،
بكيْتُ طويلًا، ربما لأنك كنت صادقًا جدًا، لم تتحدث لي
كما يفعل المولعون بالعشق.. تحدثت إليّ كرجل يضع قلبه
بين كفيه ويقول لي: أأناي حبك؟ فماذا يفترض بي أن أفعل؟
قد هدمت سدًا بنيتُه بيني وبين كل ما يأتي به الحب؛ فصرْتُ
أتبعك بروحي، وبقلبي، وبأغنيات التي أشعر أنها تقول لي ما
في صدرك من كلام. أليس هذا كافيًا لبقى معًا؟

أردتُ أن أبكي حينها. لم أستطع. تجمدتُ مكاني، ولم
أرغب لتلك اللحظة أن تنتهي.

أصبح لدي أسرارٌ صغيرة أخبئها في قلبي: كلمات تتعثرين في نطقها، أحفظها لأضحكك عليها كلما شعرت بالضجر. أغاني لا تملين من سماعها، أحفظها على هاتفي، وعندما تمرُّ لحظات سيئة أسمعك إياها. تقاومين أحيانًا، لكن سرعان ما يجرفك جزء تحببته فيها إلى كلماته. ليس لديك أفضل صوت في العالم كما هي عيناك.. لديك صوت يعبر قلبي. ودعاء أقرؤه سرًا في داخلي لئلا يحول بيننا غياب، ولا يتنبه لحبنا حاسد.

وخوف واحد مستمر: أن ننتهي دون رغبةٍ بذلك. أن يسير بنا القدر إلى حدٍّ فاصل، حيث نقول: كان بيننا حكاية، وددنا أن نكملها.

قلت لك ذات مرة:

- أخبريني عن عائلتك.

- ماذا ترغب بأن تعرف عنهم؟

- أي شيء. فقط أخبريني عنهم.

- أممم، لدي ثلاث أخوات، وأخ كبير. أنا الأخيرة في الترتيب. أبي رحل إلى ربه قبل عامين. أمي لحقته بعد أسبوعين فقط. كانت تتحدث إلي قبل أن تنام إلى الأبد،

قالت: الحياة ليست مكانًا نعيش فيه، الحياة شخص نمضي معه أينما ذهب. اختاري حياتك بشكل صحيح لئلا تحين لحظة الوداع فتدركين حينها أن عمرك قد فنى دون أن تعيشيه كما ينبغي.

- هل تشعرين بأني «حياتك»؟ كما قالت أمك؟

- لا، ليس لأنك لا تستحق. لكن لا أرى أن هذا كلام صحيح. ربما كان من شدة اشتياقها لأبي. ربما لأن العمر الذي قضوه معًا أطول مما قضيناه نحن في الحياة ذاتها.
- ربما كانت محقة!
- ربما...

ترددت في مواصلة جلسة الأسئلة التي تعيدنا للبدايات دائمًا. فضول ما زال يتتابني تجاهك. سألتك بخوف:
- أتدريين يا ساره، أستغرب حقيقة من أمرك. أعني معظم الفتيات هنا يكن بصحبة أحد من عائلتهن. لكنك جئت وحدك. ولا أذكر أنك قد قلت لي بأن أحدًا من الوطن ينوي أن ينضم إليك هنا. على أقل تقدير، أحد ما يسأل عنك!
- لا تخف، ليس لي أحد ليقطع مسافات طويلة إلى هنا من أجلي. وأنا هنا وحيدة؛ لأن كل من تبقى من عائلتي مشغول بنفسه. إخوتي ما زلن في سباق الذرية، ما إن يضعن حملهن

حتى تتكور بطونهن مجددًا. اهتماماتهن لا تتجاوز ملء بطاقة العائلة بأسماء صغارهن، والمحافظة على أزواجهن لئلا يضعوا امرأة جديدة فوق أسمائهن على ذات البطاقة. أما أخي؛ فلم يكن لديه مانع في سفري، بل وجدها فرصة لإدارة ما تبقى لي من تركة أبي. كان سعيدًا حين أخبرته برغبتي بالسفر.. ودعني في المطار قائلاً: لا تخافي من الفشل، ولكن لا تعودى دون أن تحققي طموحك. أرغب بأن أصدق أنه كان يتمنى لي الخير حينها، لكنني أعرفه جيدًا، لا يهتم سوى زيادة الخانات البنكية في رصيده. كان هذا في وقت مضى، الآن هو متورط بفشله، بل كلنا متورطون به.. أرجوك، لا تذكرني به.

- يبدو أننا متشابهان جدًا يا عزيزتي. لدي أيضًا أخ أكبر، لا يطمح لشيء سوى ثقة أبي في إدارة أعماله. حاول جاهدًا أن يقنعه بأنني لا أصالح للتجارة، ونجح في ذلك. لكنني مدينٌ له.

- بماذا؟

- بأشياء سأخبرك عنها مستقبلًا.

- ماذا عن أمك؟

- أُمي رحلت عن الحياة قبل أن أصل إلى هنا. كانت شعلة النور الوحيدة في قلبي، وانطفأت أسرع مما ينبغي. لم يرعيني أنها ترحل وتتركني وحيدًا على هذه الأرض، فقط الطريقة

التي تجاوز بها أبي حزنه عليها هي ما أخافتني!

- ماذا حدث؟ إن كنت لا تمنع سؤالي.

- بدلها بواحدة جديدة. زوجة تصغره بعشرين عامًا، في الأسبوع الثالث من وفاتها. سألته: أليس في قلبك لها شيء؟ لا يعقل أن تتزوج بامرأة أخرى بعد أن توفيت المرأة التي كرس روحها وجسدها لخدمتك! أجبني: تمامًا كما قلت، ليس هناك روح وجسد يخدماني الآن.

*

عنوان الحياة، التجارب التي تخوضها: انتصاراتك،
خساراتك، اللحظات الصغيرة التي تستحيل إلى ذكرى دائمة
لا يمسسها سوط النسيان. تبقي في داخلك كحجارة ثقيل
صدرك، أو كسحابة تمطر بك بالحنين.

أتدريين أيتها المجنونة السمراء أني كنتُ أعيش الحياة قبلكِ
بلا ألوانٍ تزين صورها. ظننت أنها هكذا وعليّ أن أتقبلها كما
هي. وحدكِ كنتِ الضوء الذي أظهر لي وجهها الحقيقي،
ملونة ومليفة بالحب.

حين حلت الإجازة الصيفية، كنتُ قلقًا من أن تنوي العودة
إلى الوطن. أن تتركيني هنا وحيدًا أنتظر عودتك.
- لا! لن أذهب. سأبقى هنا.

- عظيم!

قررنا أن نقضي إجازتنا في سفرٍ طويل. سنحزم أمتعتنا
ونغادر هذا المنزل. لا نعرف إلى أين الوجهة، المهم أن نكون
معًا

قُلْتُ لِي:

- ينفع نكون لحالنا؟

- وإيش المشكلة؟

- الشيطان ثالثنا.

لم أتضايق من ظنك بي؛ فهذا تمامًا ما سيحدث!

كنتِ تدركين تمامًا مدى غوايتك. الأشياء التي تفعلينها
خلصةً حينما لا أكون في المنزل تقول هذا أيضًا. ذات مرة
أخبرني أنثوني أنكِ نزلتِ إلى المسبح، في الجهة الخلفية
للمنزل. لم أصدقها.. قلت له أرسل لي صورة! رد عليّ: كم
تبدو مغفلاً بطلبك هذا! تعال وانظر بنفسك.

تملصت من محاضرتي، وسريعاً عدتُ إلى المنزل. لم
تكن رغبتني برؤيتك في هكذا حالة، أردت أن أعرف إلى أي
مدى هي جرأتك. قابلت أنثوني حين وصلت، كان يضحك
على قدومي السريع. سألته: هل هي بالمسبح؟ أجابني بنعم.
حاولت الدخول عبر الباب الخلفي. الباب الوحيد المفضي
إلى المسبح، لكنه كان مقفلاً. نظرت إلى أنثوني مستغرباً،
وقال: لن تستطيع الدخول، طلبت مني المفتاح. قالت أنها
تحتاج إلى بعض الخصوصية. أيها المغفل! لا تخف، أنا أيضًا
لم أنظر لشيء! هاهاها!

بعد دقائق سمعت صوت الباب يفتح، اختلست النظر من وراء باب غرفتي. ولم أر سوى فتاة يستقر فوقها أكوام من المناشف!

غريبة أنتِ يا ساره، مرةً أشعر بأنكِ عصية على كل شيء.. محاولاتي في خطف قبلة من ثغرك تنتهي بوداعٍ غريب.. اللحظات التي أحاول أن أضع كفي في كفكِ كلما ذهبنا في سرُّنا معًا تنتهي بأعذار مصطنعة: سأدخل إلى هذا المحل، تنتظرني هنا؟

وفي أحيان أخرى، أراكِ امرأة من نار، لا سلام في نحرِ صدركِ الذي يقول لي دائماً: تعال! ولا بردَ يأخذني حينما أحترق في أحضانكِ كشعلةٍ تقاوم اللهب لكي لا تنتهي قبل أن تكتفي منك! تعبث بكِ أغنياتك، تجرُكِ إلى كلماتها، تتلبسين دور البطلة، وتقتحمين غرفتي على غفلةٍ مني.. أسألكِ: ماذا! لا تنطقين. يتدلى من خلف خصلات شعركِ سلك السماعات الصوتية، يصلني النغم الذي يدوي في أذنيكِ.. تمدين يديكِ نحوي.. أجيء إليك؛ فتغرقين في حضني دون كلام. تنتهي الأغنية، وينتهي دوركِ فيها. تعودين للوراء، تشيرين بيدكِ بأنكِ مجنونة ولا ملامة عليك. ترحلين ضاحكة وأبقى مندهشاً من عطركِ المتغلغل في ثيابي.

- إذا؟ نساfer أو نبقي هنا تحت حراسة أنثوني؟
- نساfer .. زينب وزوجها سيأتيان معنا. سبق أن اتفقت معها على ذلك.
- بنت
- بنت إيش؟
- بنت قلبي.



بعد ثلاثة أيام، سافرنا براً نحو مدينة الشاطئ الذهبي كما تسمى «قولد كوست». كنت أقود وأنتِ بجانبني تقرأين كتاباً ما. مررنا في الطريق على مزرعة التوليب التي عرفتُها قبل أن تصلي إلى هنا/ إليّ، بساعات قليلة. توقفنا عندها، وحين رأتنِي البائعة؛ تعرفت عليّ سريعاً. سألتني: ماذا فعلت بالوردة السابقة؟ نظرتُ إليك مبتسماً، ومن ثم أجبتها: بدلتها بوردة أخرى. هذه التي تجلس بجانبني. ردت عليّ: اختيارٌ جيد! لم تفهمي شيئاً حينها. سألتني عن قصة الوردة السابقة، ووعدتك أن أخبركِ عنها لاحقاً، وها أنا أفعل الآن. ربّما ظننتُ أنني أهديتها لواحدةٍ أخرى! ناسبني هذا الظن، لأنه ببساطة يقول إن هناك نارَ غيرة تحرق كلما شعرتُ بي أحميد عن طريقكِ.. تخافين أن يكون هناك شخص آخر في حياتي. والآن أدرك أن تلك الوردة لم تكن سوى رسالة سماوية بأن الحياة ستصالحني، وأني كنتُ في اليوم المنشود الذي أخبرتنِي عنه أمي/ اليوم الذي وجدتكِ فيه! ابتعتُ لكِ وردة توليب واحدة. أعطيتكِ إياها وشكرتنِي. أما زينب؛ فتعكر مزاجها من زوجها سنان. قالت له بلهجتها العراقية الأصيلة: شكك بخيل!

حين وصلنا إلى الفندق، كانت الشمس ما تزال تحاول

الهروب من السماء. دلف كلُّ منا إلى غرفته على أن نخرج
معًا بعد مغيب الشمس. اتصلت بي وأخبرتني أن آتي عندك:
المنظر هنا يجنن! تعال!

كانت إطلالة الغرفة على البحر هي ما أعجبك. وقفت
بجانبك عند الجدار الزجاجي. العالم يبدو صغيرًا جدًا من
تحتنا. نساء متناثرات على الرمل الذهبي. رجالٌ يركبون
الأمواج، أطفال يعبثون بالتراب. كل ذلك كان واضحًا وصغيرًا.
قلت لي: أرغب بالنزول إلى البحر.

- الحين؟! -

- لا، بكرًا يمكن.

- وإيش ناويه تلبسين؟ «مايو إسلامي»؟! -

- لا طبعًا!

- أجل؟! -

- بكرًا تشوف. الحين تفضل على غرفتك. الظاهر الشيطان

قرب يوصل.

- أجل ننتظر شوي بعد.

- غسان!

خرجتُ ضاحكًا عليك، مترقبًا للغد، حيث البحر.. وأنت.



كل الأمور الجيدة لها وقت صلاحية، تتعفن بعد ذلك. الذكرى أيضًا. ليس في رأسي ذكرى واحدة لم تفقد صلاحيتها. ما عدا الأشياء التي تتعلق بك. كأن الله خلقها لي، كأنها الفيلم الوحيد الذي يناسبني في كل وقت، لم تكن للتسلية قط، إنها الذراع التي أتمسك بها لأعود إلى نفسي. إلى روح مطمئنة لم أدرك أنها تسكنني حتى وجدتكِ. أفكر أحيانًا لو أنك كنتِ حبي الأول.. لو أن الزمان يعود، أقتص منه ما كان يفسدني، ما ينخر روحي عفنًا وقسوة. أختار أبا جيد، أعيد أُمي إلى حياتي، أخبرها بأن الله فعل ما قالت لي: أعطاني ما أستحق أن أحبه. أراجع عن كلمة «أحبك» التي نطقتها في محاولة أخيرة لإنقاذ زواجي الأول من «نادية». أمحي نادية من حياتي. أجعلكِ مكانها، وأقول لكِ أحبكِ وحدكِ، ولا أعرف أحدًا يسكن قلبي غيركِ. أتعلق بكِ يومًا بعد يوم، ما تضعينه فيّ يكفي لأن يصارعني عليه الرجال كلهم لينوؤوا بحمله!

قلتُ لكِ ذات مرة:

- ساره، لا أعرف إلى أين كنت سأنتهي لو لم أجدكِ. ولا أعرف كيف سأنتهي إن رحلتِ يومًا عني.

- الله لن ينساك يا غسان.

- أثق بالله، وأحبه. لكنني أخاف الناس يا ساره. ليس لي الآن سواك. أرجوك حين تنوين الرحيل... ضعني لي سمًا أو اقتليني!

- مجنون أنت والله.

صمتٌ لبرهة، ثم نظرت إليّ وقلت:

- دعنا نتفق الآن إذا.. لا تكرهني ولا تبدلني. وستجدني هنا معك، مهما حصل، ومهما باعدت بيننا الحياة، ستجدني دائمًا هنا. لن أقوى أن أغادرك يا غسان. لا أراك حبًا فقط، إنك الآن حياة! ولا أريد حياةً أخرى وإن كانت أفضل. إنني أكتفي بك.



كان من الغريب إصرارك على النزول إلى البحر. قلتُ لك:

- البحر مليان بنات!

- يعني؟

- العين تهوى الجمال.

- حاول أنت بس!

لم تنفع محاولاتي في إثارة غيرتك. عنيدة حين تأخذين
قراراتك.

- اسبقني، دقائق فقط وأكون عندك.

جلستُ على الشاطئ أنتظرُك. كنتُ أحرق في البحر. يهيج
تارة ويهدأ تارة أخرى. كأنه قلبي حينما يراك. وقفتُ وسرتُ
نحوه. شعرت ببرودته على قدمي. خلعتُ قميصي ومشيتُ
إلى داخله. كانت أنفاسي تتسارع كلما توغلت في برودة
مائه. أردت أن أغوص فيه دفعةً واحدة. وقبل أن أحاول، جاء
صوتك من بعيد.

- غسان. انتظرنِي.

ألثفتُ إلى الوراء. شعرتُ بقلبي ينقبض. ثم يشور كموجة
غير متوقعة. حدقتُ فيك من البعيد. ظننتُ أنني أنظر إلى
الشخص الخطأ. لكن قلبي لا يكذب. اقتربتُ مني، صار لون
ساقيك أوضح الآن! عيناك تدفئان البحر، والشمس ترغب

بالغروب على النحر الغاوي فوق نهديك.

إنها المرة الأولى التي أراك فيها فاتنة حدّ الذوبان. كلما
اقتربت مني وجدتُ أنني أغرق في تفاصيلك، ولم يكن البحر
بعمقها، أو بجمالها. كتفالك الصغيرتان تختبئان خلف شعرك
الطويل حيث ينتهي به المطاف متكئاً على جانبي سرتك.

لو تعلمين يا عزيزتي حينذاك ما يمكن لغيمةٍ مثلك أن
تفعل برجل جاف كصحراء شاسعة كأننا!
حين وصلتِ إلي كنتُ سارحاً بك..

لم أفهم ما كنتِ تقولينه.. أخذتِ بيدي وسرتِ بي نحو
العمق. ابتسامتك لم تفارقك، وقلبي لم يهدأ للحظة.
هناك حيث غمرنا الماء إلى أعناقنا، توقفنا. نظرتِ إليّ
وأنتِ تحاولين الوقوف على قدميّ لئلا يلتهمك هذا البحر،
ثم قلتِ:

– ماذا!

لم أنبس بينت شفة.. جذبتك نحوي...
وابتلعتنا موجةٌ صغيرة.



أتردد بين الحين والآخر في مجارة جنونك. لم تكوني فاسدة لأخاف منك.. كنت عظمة في قلبي لأخاف عليك. وبقدر ما أردت أن أنعم بك روحًا وجسدًا، كنت حذرًا لئلا تصبح علاقتنا مؤقتة.

زينب وماجد غادرانا في اليوم الثالث. قال ماجد أنه يتوجب عليه العودة إلى المدينة ليلتقي مرشده الطلابي قبل أن يسافر. زينب كانت تقول كلامًا آخر: لقد استاء مما يدفعه لهذا الفندق.

خرجت معك يومها، أخبرتك أننا سنذهب للسماء، لم تصدقي. وحين وصلنا إلى المكان المنشود، كانت الطائرة في انتظارنا.

- مجنون أنت؟! غسان لا أستطيع أن أفعل هذا.

- يا خوافة، كلها قفزة واحدة. جربي ولن تندمي أبدًا.

- لا، ولا في الأحلام.

- إذا سأذهب لوحدي.. انتظريني هنا.

- غسان! أرجوك لا تذهب. إن كنت تحبني لا تذهب!
- أحبك، ولكنني سأقفز. إن لم أهبط بسلام فسأزورك في
أحلامك!

- إن ذهبت؛ فلا تعد.

- متأكدة؟

- إيه!

كان المظلي المرافق يحكم ربط الأحزمة عليّ وأنا أنظر
إليك، كنتِ فعلاً خائفة. وجهك قلق، وتصلني نبضات قلبك
برجاء أن أعدل عما أنوي فعله. اقتربت منك، قبلتُ وجنتك،
وأخبرتكَ أنني سأعود، وستكونين هنا بانتظاري.

أقعلت الطائرة، تجاوزت نسيج السحاب، فُتح بابها
الصغير، اقترب المظلي مني وأحكم ربط أحزمته بحزامي.
قال: مستعد؟ أجبت: مستعد!

في لحظة واحدة دفعني إلى الخارج. أحسست بالهواء
يدخل رئتي. كنت أصرخ رغم أن لا خوف كان في داخلي.
شعرتُ أنني نقطة صغيرة جدًا على خارطة السماء، وأن الكون
أكبر من أن يكثرث لي!

بعد دقائق كانت قدماي على الأرض، ترجفان بلا سبب.
أخذتُ نفسًا ثم بحثتُ عنك حيث تركتك، ولم أجدك. سألت

عنك وقالوا لي: رحلت. نزعت الأحزمة التي حولي سريعًا، ركضت متوجهًا إلى السيارة. حتى وجدتكَ جالسةً على مقعدٍ خشبي أمام البوابة. تدسين رأسك في حضنك.

«ساره!» صرختُ عليك من بعيد. لم تتحركي.. اقتربت منك، وضعتُ يدي على كتفك وسألتك:

- ما بك؟!

- أكرهك، والله أكرهك!

فهمتُ منك خوفك عليّ. قلتُ لي:

- متخيل أني أشوفك تطيح من السماء. ألف فكرة وفكرة جات في بالي. حسيت أنك بتروح مني.

جلستُ بجانبك، وضممتُ نحو صدري. حيثُ لم تكن في بالي سوى فكرة واحدة: أرغب بقضاء ما تبقى من عمري معك.

*

عدنا إلى الفندق متأخرين ذلك اليوم. كنا قد شاهدنا فيلمًا في السينما، بعد أن تناولنا العشاء. ودعنا بعضنا في المصعد. أخبرتكُ بأنني سأنام على أن نستيقظ مبكرًا في الصباح لنعود إلى مدينتنا.

تمددت على فراشي في انتظار النوم أن يأتي. مرّت نصف ساعة، لم أنم. مددت يدي وأمسكت بهاتفِي. كانت هناك رسالة منك، وصلت قبل سبع دقائق ولم أنتبه لها. فتحتها، صورة حوض الماء ممتلئ تتصاعد منه ألسنة البخار. كتبت تحتها: هل ترغب بالمجيء؟ تركتُ لك الباب مفتوحًا.

أردت أن أقول «لا». أن أتوقف إلى هذا الحد، حيث لا تستحيل بنا الأمور إلى أقدار نخافها.

أعلم أنني لم أحبك بطريقةٍ لائقة فيما سبق، كان أكثر ما يعجبني فيك هو مظهرك، الجمال الذي تحمليه معك في كل وقت. صوتك أحيانًا حين تغنين، ورغم أنني لا أفهم بالموسيقى شيئًا، كان صوتك أجمل ما سمعت!

خفت أن أفسدك، أن تصبح أيامنا القادمة مجرد جسدين يقضيان حاجتهما. تمامًا كم شعرتُ مع «نادية». كانت تلتصق بي أحيانًا حينما أنام. أشعر بجسدها يشتعل. وما إن تنطفئ؛ حتى تتركني وحيدًا أقضي ليلتي متسائلًا: ماذا حدث!

رأيت كيف لرجلٍ أن يهزم رغم انتصاره، أن يتوه في بحر الأسئلة، كيف ولماذا، هل كنتُ السبب أم أنني لستُ كافيًا! حتى تموت الرغبة فيه وهو في أشدّ حاجته إليها.

وأفهم الآن كيف له أن يحاول الوقوف من جديد بعد هذا
الارتطام الحاد، الذي لم يكن هناك أحد لينشله منه؛ فبقي في
القاع منتظرًا حتى ابتلعتة عتمة الروح. يتلمّس جرحه كلما
حاول النهوض، لكنه جرحٌ عصي على البراء.. كلما حاول
مداواته.. شعر بيدٍ خفية تضغط فوقه.

لكنك لستِ مثلها، أعرف هذا. لا يمكن لامرأة أن تبكي
على رجل لا تحبه، وفعلتِ أنتِ هذا اليوم.

ضعيف المقاومة أنا أمامك، لا ينفعني قلبٌ مجروح، ولا
ذكريات سيئة. أملُ كأني غصن هزيل يتأرجح على رياحك..
وأمضي في طريقك، ولا أملُ المسافة وإن طالت.

قررتُ الذهاب، أو الغرق معك. صوت الضمير في داخلي
يتلاشى، وحسبي أنك مالا أندم على اللحاق به.

هناك، حيث لم يكن لنا سوى الغرق، تحسستُ شعركِ
المبلل، رحتُ أداعبه بأناقلي، راثحته تنفذ لأنفي، التصقت
بكِ أكثر.. وضعتُ رأسكِ على كتفي، كنتِ تحاولين معرفة
إلى أين أنظر، التقت عينانا، ثم قلتِ: قبلني.



كنتُ مخطئًا حين اعتقدت أن «علي» سيتراجع عنك بسهولة.

رأيتك معه في الحرم الجامعي ذات مرة. ظننتُ أنك ستتملصين منه، رُبما التقيتما مصادفة، وستودعينه الآن. توقفت أنظر إليكما من بعيد. الشجرة العملاقة أمامي كافية لثلاث شعرا بي. أحسست حينذاك أنني أبتلع الدقائق بفمٍ جاف، تجرحني ولكنني أمني النفس بأن تنتصري لي في نهاية المطاف. ولا أعلم كيف أصف خيبة أمني بك حين رأيتك تذهبين معه !

لا يمكن بأن يكون لقاءكم لغرض دراسي.. علي في سنته الأخيرة ويدرس تخصصًا مختلفًا عنك.

كان يصلني صدى ضحكاتكم. تبدين سعيدة وهو بجانبك. يحاول أن يضحك مرات، ومن ثم يصمت، يخرج هاتفه ويريك شيئًا عليه، ومن ثم تعودون لمواصلة حديث لا أفهمه. أصابني تعب وأنا أراكِ معه، لا يهمني من تصاحبين، لكن

كسرني أنكِ تعلمين أنه يتعبني أن يكون هو معك!
حين عدتِ إلى المنزل؛ سألتك عن يومك. أجبتِ
بإختصار: «كان جيدًا». فلم أشأ أن أتحدث معكِ عمّا رأيته.
في الأيام القليلة التي تلت لقاءكِ به، كان صوت الأغنيات
القادم من غرفتكِ ينقطع لدقائق طويلة ومن ثم يعود. حاولت
في إحدى المرات أن أدخل عليكِ الغرفة وأتحرى عنكِ. لكن
بابكِ كان مقفلاً. عدتُ إلى غرفتي، وبعد دقائق أتيتِ أنتِ.
سألتكِ عمّا كنتِ تفعلين، أخبرتني أنكِ تكلمين أحدهم.

- مين؟

- صديقة لي.

- وصديقتك مالها اسم؟

- عفاف.

- عفاف!

- إيه.. تعرفها؟

- لا.

ومضيتِ عائدة إلى غرفتكِ.

أحسستُ بأنكِ تعلمين عمّا حدث بيني وبين عفاف في
الماضي. قلتُ في نفسي: أحسن الظن، ربما أنه تشابه أسماء،
أو أنها تعرفت عليها فعلاً. قد تخبركِ عن ماضيّ معها، وقد لا

تجرؤ على البوح.

عفاف فتاة لطيفة، هكذا أعرفها، ولن تحاول كسري. التقيتُ بها في مكتبي في الجامعة. كانت في عامها الأول، ما تزال في معهد اللغة. جاءت تبحث عن المشرفة الخاصة بها، وكانت إنجليزيتها ضعيفة جدًا إلى درجة أنها لم تستطع أن تقرأ الأسماء المعلقة أمام كل مكتب. حينذاك كنت أحاول أن أنهى بحثًا لمادة من مواد الماجستير. طرقت الباب؛ فأذنت لها بالدخول. حين رأنتني حاولت أن تسأل أين تجد «روز ميلر»، أحببتها ولكنها لم تفهم. شعرتُ بذلك من عينيها. أعدت الكلام عليها بالعربية، فاستهل وجهها، وقالت: لم أعتقد أنك عربي!

ومنذ ذلك الحين وهي تزورني من فترة لأخرى، تلقي التحية عليّ وتضع أمامي صحنًا من الحلويات العربية، ثم تنصرف. ذات مرة قالت بأنها أعدت هذه الحلويات لي فقط، وفي بادرة لرد المعروف، دعوتها للجلوس والحديث في مكتبي

ثروة كبيرة هي، تأكل الكلمات من شدة ثروتها. متوسطة الجمال، ساقاها طويلتان، وتحاول دائمًا الكشف عنهما كلما زارتني. لها شعر قصير لونه أحمر، لا يناسب وجهها النحيف.

وحيدة هي أيضًا هنا، جاءت بمنحة حكومية من ليبيا.

لم تزعجني زياراتها التي أصبحت متقاربة أكثر مما يجب، أحيانًا كنتُ أقفل الباب وأطفئ أنوار مكتبي حتى تظن ألا أحد هنا. تطرق الباب ولا أجيبها، ومن ثم ترحل. وفي أحيان أخرى كنتُ أجالسها حين أكون في مزاج جيد يسمح لي بتحمل حكاياتها الكثيرة.

لا أفهم سر انجذابي لها في بعض الأوقات. قد حاولت إغوائي حتى سمحت لها بذلك. لقاءاتنا القصيرة في المكتب أصبحت تأخذ وقتًا أطول، حتى دعيتني في إحدى المرات لكوب قهوة. سرعان ما شعرت أنها تمكنت مني. صارت تلعب دور العاشقة وتنتظر مني أن أتقن دوري في المقابل. ترسل لي قصائد عن الحب، لا أفهمها ولا أعرف كيف تقرأ. ومرات تصحبني معها إلى التسوق. وقتها، تعتمد أن تقيس الملابس الداخلية أمامي. تضعها على خصرها، من فوق ملابسها، وتستشيرني: مناسب؟

أضجر من وجودها أحيانًا؛ فألقي عليها كلمات قاسية. لا يؤثر ذلك بها؛ فهي من النوع المنصاع إلى الرجل وجبروته. تغيب يومين، ومن ثم ترسل لي قصائد جديدة.

دعوتها مرةً لتزورني في المنزل. كان أنثوني يقيم حلفة

«طلاق»! حينها كان قد انفصل عن زوجته/ لورا، وكان سعيدًا بذلك .

الغريب أن عفاف جلبت معها ملابس مبيت! كانت حمقاء واثقة من أن هذه الليلة هي ليلتنا الكبيرة! سايرتها في رغبتها في المكوث عندي، جلبت لها فراشًا إضافيًا، ووضعت على الأرض بجانبني. نظرتُ إليها، وقلت: هذا فراشك! تمسكت بي حتى النهاية، شعرتُ بأنها بدأت تعجبني، مطيعة وتحاول ما في وسعها لتنال الرضى مني. قلت: قد يكون هذا ما تحتاج إليه! امرأة تتبعك أينما ذهبت، امرأة قد تقفز إلى النار إن طلبت منها دون أن تشتكي. حتى دخلتِ أنتِ حياتي.

ساره، لا تعلمين ما تتركينه بي من أملٍ وحبّ. أذكرك في دعائي، ولم يحدث أن تمنيت شيئًا لا تكوني معي فيه، وإن سهوتُ، بحثتُ عنك حيث أجد إجابةً لكل أمنياتي. من غيرك حتى عندما أكرهه.. أحبه؟ كأني ذاك الذي لا ذاكرة له سوى قلب يخبره بأنه ينتمي إليك. مذ وجدتك، نسيت كل إنسانٍ كان في حياتي، واكتفيتُ بكِ صحبةً وأحبة. لم يكن غيابهم عن حياتي خسارة. ظني أنني فزتُ بما هو لروحي أصدق.. وللقلب ألطف.

يتلاشى كل حزن يجثو على صدري؛ كلما وقعت عيناى
على ثغركِ الباسم.

قد صنعك الله لأن تكونى فى قلبى؛ فباسم الله فتحتُ لكِ
أبوابه. هذه جنتك، استقرى فيها بسلام، لا شريك لك اليوم.

*

لديك عادة غريبة حين تكذبين. تعبين بشعركِ بحركاتٍ دائرية تقوم بها أصابعكِ، وكأنكِ في حالة لا إدراك لما تقولينه. لا تنظرين إلى عيني كما تفعلين دائماً، تحاولين الهرب بهما إلى مواضع لا نفع من أن تحدثني فيها. ولم أركِ في هذه الحالة سوى مرتين.

الأولى عندما سألتكِ إذا ما كانت لديك علاقات سابقة جادة.

كان ذلك في أولى أيامنا معاً. أجبتِ وأنت تعبين بخصلةٍ من شعركِ، تتموج على أصبعكِ حتى تشعرين بالألم، ومن ثم تتركينها وتبحثين عن واحدةٍ أخرى. قلتِ لي حينذاك: لا شيء حقيقي، ما عدا بضعة شباب كنت أنسلي معهم ليقدموا لي خدماتهم: سداد فاتورة الجوال، إكمال مبلغ ناقص لأشتري به أشياء أرغب بها، أو لأضيع وقتي على الهاتف حينما لا يكون معي أحد في المنزل.

لعبتُ دور المصدق لكِ، ولم أشأ أن أبحث عن إجاباتٍ لأسئلةٍ قد توتر علاقتنا.

الثانية: عندما سألتكِ تلك الليلة أين كنتِ في الصباح. قلتِ إنكِ في الجامعة، لكنني لم أركِ هناك. بحثتُ عنكِ

في كل مكان ولم أجذك. كنت على قلقٍ.. أن تكوني مع علي مرةً أخرى! أكدت لي أنك كنتِ بالجامعة، ومنها عدتِ إلى المنزل مباشرة.

ابتعلتُ كذبتك وقلت قد أكون خاطئًا بشأن عادة كذبك الغريبة.

كل حبيبٍ يكذب على من يحبّه هو منافق، يختار طريقًا مظلماً بدلاً من كلمة صادقة تنهي شقاءه.

حاولت أن أصدقك إلى أن جاء اليوم الذي قطع شكّي باليقين. كنتُ حينها أسير وحيدًا في شارع «رفثن» حيث قلب المدينة والمحلات التجارية المتكدسة على جانبيه. أردت أن أبتاع لك سماعة جديدة بدلاً من تلك التي أصبحت تتعب أذنيك من صغر حجمها. مررتُ بجانب المطعم التركي الوحيد بالمدينة، ولا أعلم لماذا كتب لي القدر الالتفات إلى طاولاته.

هناك في الزاوية القريبة من الجدار الزجاجي، كنتُ تجلسين أمام علي. وقعت عيني على عينك مباشرة، شعرتُ بكِ تختنقين حينها، وشعرتُ بقلبي يتزف من جرح تسببت به!

لا تتعبنا الجروح يا عزيزتي، ما يتعب هو ما يتعلق بها من
مشهد، من وجوه، والألم الذي يبقى ساكنًا بنا وإن برئت تلك
الجروح، وليس هنالك جرح يختفي إلى الأبد.. إنه يستحيل
إلى ندبة تدلنا دائمًا إلى الأوجاع.

كل ما أردته معكِ هو صفحة بيضاء لا يشوها شيء،
وسلامٌ أبدي للندبات التي نسيْتُ أنها تملأ صدري مذ
أصبحتُ معكِ.

واصلت السير، ولكن بلا وجهة. لحقتِ بي راكضةً، كنتِ
تصرخين باسمي دون توقف، حتى أدركتِ خطواتي.
- غسان، بالله عليك توقف.

واصلت السير.

- دعني أشرح لك على الأقل. عطني فرصة!
لم أكرث لكل ما قد تقولينه. تابعت طريقي واستمررتِ
في المحاولة.

- ما بيننا شيء والله. أدري إنك تكرهه، وأدري إنك متضايق
لأنني معه. بس عندي سبب!

وددتُ لو أنني أصرخ أمامك، أقول: توقفي، ليس هناك
سبب مقنع لأن تفعلني هذا.

لكنني نظرتُ إلى عينيكِ التي أحب، ثم عرفتُ أنني لا
أستطيع أن أقسو عليهما.

لم يربح أيُّ منا حينذاك، كنا خاسرين في معركة واحدة!
بكِيتٍ وتوسلتِ، ولم أكن قادرًا على الغفران.
توقفتِ مكانكِ، بينما كنتُ أبتعد، ضمنتِ رأسكِ بين
يديكِ، وكان قلبي يبكي معكِ.

عندما قطعت مسافة كافية، كانت بي رغبة بالعودة، بأن
أضمكِ نحوي، وننسى كل ما حدث كما لو أنه لم يحدث.
لا أريد أن أستمع إلى عذر، كل ما وددته أن أكون معكِ ويتهي
هذا الكابوس المزعج. مؤمن أن ليس هناك شيء يحول بين
المرء ومن يحب.. من يتعد فقد اختار ذلك بنفسه، أما من
يرغب بالقرب؛ فلا يوقفه أحدٌ عن ذلك، وإن كان قربه ألم.
قررت العودة إليك، التفت إلى الوراء ناحيتكِ، وحينها
شيءٌ ما قبض على قلبي..

عندما رأيته واقفًا بجانبكِ، يطبطب على كتفكِ.

*

لم تكوني قليلةً في قلبي لأتنازل عنكِ.

لم يحدث أن تخيلتُ يومًا لا تكوني فيه، كنتُ أغرق فيكِ
يومًا بعد يوم، وأصلي لرب السماء أن يحفظكِ في قلبي.
متعب أن تجد نفسك مدفونًا في الغياب بلا إرادة، ومؤسف أن
يكون الوحيد الذي تثق به هو أول الناس لك خيانة.

غابت الشمس يومها ولم تكوني قد عدتِ إلى المنزل بعد.
سألني عنكِ أثوني، أحبته بأنكِ في الطريق. هكذا تمنيت.
ظللتُ أنتظركِ حتى انتصف الليل، ولم تعودِي. كانت إشارةً
واضحة بأنني خسرتكِ، بأنه تغلب عليّ واستطاع أن يتشلكِ
من أحضاني.

تخيلتُ أنكِ معه، ربما مستاءة، وقد تكونين تجاوزتِ ذلك
وتهللت ملامحكِ له.

هل كنتُ قليلًا في قلبكِ إلى هذا الحد يا ساره؟!

أنا من كان يخبركِ أن حقول ياسمين تنام على شعركِ، كلما
سقطت واحدة بسطت كفي بستانًا لها!

أنا من رمى قلبه في ذراعيك، غير مبالٍ بما تفعلينه به..
حسبه أنه بين يديك، راضٍ بالألم إن قسوتِ عليه، ومطمئن إن
احتفظتِ به.

سألتني مرةً:

- ماذا تحب فيّ يا غسان؟

- كل ما بك أحبه.

- احكِ لي.

- أحبّ الطريقة التي تفعلين الأشياء بها، حين ترين
زهرةً ملقاة على الأرض، تضمينها نحوكِ وكأنها كانت لك..
تداعبينها بوجنتك، وعندما أخبركِ أنها نسخة، تقولين هذه
نعمة الله، ويجب عليّ أن أحترم نعم الله. بعيدًا عن جنون
أغنياتك، جئتِ كما أشتهي للمرأة أن تكون. وكلّ امرأةٍ سواكِ
لا تترك في عينيّ شيئًا من الجمال كما تفعلين. صوتك لوحده
أغنية.. أتعجب أنك لا تلاحظين، وهذا ما أترقبه حين تغرقين
في أغانيك، أنتظر اللحظة التي يخرج فيها صوتك في محاولة
اللاحاق بكلماتها. دعيني الآن أصمت قبل أن أتوغل فيما
تسترينه عني.

- فقط هذا؟!!

صمتُ لبرهة، ثم ضمنتكِ إلى صدري، وأكملت:

- حين يحل الصباح لا أستيقظ لشيء، سوى أن أراك.
وحدك من تستحق أن يبدأ الصباح بها. أنتِ الفكرة العالقة
في رأسي طوال الوقت! أحب حرمانك وهطولك، وأجدني
أنتظر صباحاً جديداً وبعيداً، نستيقظ فيه بأجسادٍ هرمة ورؤوس
بيضاء، أقبلك وأدعوكِ لكوب قهوة.

- حقاً؟! تظن أننا سنبقى معاً؟

- لا يهم ما نظن. هذا ما أريده وما أحاول الوصول إليه.
بدا لي أن الوجهة التي أحاول أن أسير معكِ إليها أبعد من
أي حلم!

لم أحتمل أن تعبث كل تلك الأفكار السيئة برأسي، ذهبت
إلى أين يمكث علي. طرقت الباب بقوة حتى أحسست
بأصابعي تتخدر. خرج علي بوجهٍ نائم. قبضت على قميصه
وأنا أشتمه.. جسده الممتلئ لم يردعني عن ذلك. ثم دفعني
بقوةٍ للوراء؛ فسقطت أرضاً. عاودت النهوض ورحتُ أتعارك
معه. حين خرج أصدقاؤه كان جاثياً فوقني يسدد اللكمات إلى
وجهي. فرقوا بيننا، ونحن نصرخ ببعضنا البعض:

- راح أشتكيك، والله لأشتكيك.

كان يقول لي.

- وبينها؟ خليها تطلع الحين.... ساره.

- مجنون أنت؟ ساره موهنا.

حينذاك شعرتُ بالألم يسري في وجهي وجسدي، كنتُ
مهزومًا بلا شك، لكن شيئًا في داخلي كان راضيًا.

- يعني هي ما جات معك للبيت؟

- لا، روح دورها في مكان ثاني. الله يلعنك.

*

لم تنتهِ تلك الليلة بسلام. حاولت البحث عنكِ في كل مكان ولم أجدكِ. عدتُ إلى المنزل عنكِ تأتين، وحلّ الصباح دون أن تعودِي.

هاتفكِ مغلق، ورغم ذلك أرسلتُ لكِ عشرات الرسائل. بعضها تريد الاطمئنان عليكِ، وبعضها الآخر كان يعاتبكِ. حتى اتصل بي رقمٌ لا أعرفه، أجبتُ سريعاً: ساره! ثم جاء الصوت قائلاً: أنا زينب يا غسان. ساره عندي. أخبرتها أنني قادم من أجلكِ، وطلبتُ مني ألا أفعل. - ساره متعبة. دعها تراح لدي هذه الأيام. لا تقلق.

لم يكن ثمة شيء أصعب من غيابكِ. إنها المرة الأولى التي أجد نفسي دونكِ، انطفأت في داخلي شعلة الغضب، وحلّ مكانها بردٌ حنين لا يرحم. أحسستُ بعظمة الغياب تبتلعني.. أنا الذي لم أبحث عن الحب يوماً، وجدته معكِ وما كنتُ قاصداً.

تسللتُ إلى قلبي دون أن أشعر، ولم أكن قوياً بما يكفي لأمنعكِ. إيماني بأن لكل شخص فرصة واحدة للحب تلاشى.. ورحتُ أحيك فرصتي الأخيرة معكِ.

وجدتُ أن الحبَّ ليس إلا شعوذة قلبٍ مجنون، حيث تبقى الشمس كما هي إلى أن تشرق في معها؛ فتستحيل إلى حقل قمح يسأل وجهك الهطول، وتتبدل مواسم المطر كلما بدلت قميصًا يعانقك.

مجنون بك أنا، هذا ما أعرفه الآن. أجدني أسير إلى غرفتك بلا إرادة، أنكفى على نفسي وأتكور بغطائك، أشعر برائحتك تعانق صدري، وأود أن أبكي. كتابك المفتوح على الطاولة الصغيرة، يحتضن وردةً بين أوراقه، هي ذاتها التي أهديتك إياها في رحلتنا الأولى، ورغم أنها جفت وذبلت؛ ما زالت تعني أنك تحمليني معك دائمًا.

ليت لي علبة صغيرة أخبئ فيها ما أحبه: أغنيةً بصوتك، ابتسامة خجلٍ من ثغرك كتلك التي تكون كلما قبلتُك، وإن كان بالإمكان حُضِنُ احتياطي أهرع إليه عندما لا أجدك. تغنين: هو صحيح الهوى غلاب.

حبيبتى، إن الهوى متاهة زمنية لا نهاية لها، هو الذكرى، الجرح، أول ميناء للتيه، أصعب محطة وداع، وكذبة صغيرة نعرفها جيدًا لكننا نأبى أن نصدق قلوبنا.



عندما انقضت ليلتان دون استجابة منك لاتصالاتي
المتكررة، أرسلتُ لك:

(لا أحب لعبة الاحتمالات! أخبريني حين تتوقفين عن
حبي. دعينا لا نضيع وقتنا في ترميم ما انكسر)
جاءت رسالتك سريعة:

(فلنلتق اليوم.. في المكان الذي بدأ فيه هذا الحب. الرابعة
مساءً)



في مكاننا القديم، وعلى الطاولة ذاتها، جلسنا.
عيناك متعبتان، وصوتك خائف ومتردد. بدأت الحديث
مباشرة:

- أعلم أنني أخطأت في حقك، لكنك لم تمنحني الفرصة
للشرح. كنت تأبى أن تسمع مني كما لو أنك تفضل أن أبقى
مذنبة في عينيك. تظن أن الأمر يخصك وحدك، ولكن ..

- أخبرك «علي» عن «عفاف»؟ هي لا شيء يا ساره ..

- أرجوك لا تقاطعني. اسمعني إلى النهاية.

صمتنا لبرهة، ومن ثم أكملت:

- لا تقلق، لست مهتمة بقصتك مع عفاف، ولم يخبرني

بها علي. زينب فعلت هذا منذ مدة، وفضلت أن أبقى معك بلا أسئلة لم أكن بحاجة لها. ما أراه فيك أكبر من كل كلام يقال يا غسان. أقبل بك كما أنت، لا أنظر إلى ماضيك ولا لقصصك الحزينة، كل ما أدركته هو قصة سعيدة أبدل بها أحزانك.

مددت يدي على الطاولة باتجاهي، طوقتها بكفي، ثم وصلت الحديث:

- لم أظن أن علي قد يحاول أن يشوه صورتك عندي ليحظى بي. كنت أنت يا غسان محور حديثنا، ولم أتحدث معه في شيء آخر سوى حبي لك. كان يتلعغ غضبه كلما أكدْتُ له تورط قلبي معك، يضحك ليغير مجرى الحديث إلى وجهة آمنة، كنتُ كمن يعب التراب في وجهه ليتراجع. أآلمني أنك ظننت بي السوء، أتخيل أن أخونك يا غسان؟ والله أحبك! شعرتُ بالندم يسري فيّ، أردتُ أن أعتذر، لكن صوتك أوقفني:

- لكن حيلته الأخيرة نجحت!

- ماذا تقصدين؟!

- أقصد أنه ... يعرف أموراً لم تخبرني بها يا غسان. أشياء لا يمكن للمرء أن ينساها هكذا! أو على أقل تقدير، أن يشاركها

من يحبه، ومن ينوي أن يقضي حياته معه. أليس هذا ما كنت
ترغب به؟ أن تكون معاً دائماً؟

أسندت ظهري إلى الوراء، نظرتُ إليك أبحث عن علامة
تقول أنك ستكذبن الآن، لكن عينيك كانتا مصوبتين نحوي
تماماً.

أخرجتِ هاتفكِ من حقيبتكِ، عبثتِ به للحظات قبل أن
تديرِي شاشته نحوي.

- أتعرف من هذا؟ وهل أمرٌ كهذا تنساه بسهولة يا غسان؟
كانت عيناى مشدوهتين على شاشة الهاتف. الوجه الصغير
فيها يبتسم، ورغم السنين التي مضت دون أن أحظى برؤيته،
عرفته.

- هذا «فهد»!



لم يكن ليؤذينا أحد لو أننا اتخذنا قراراتٍ صائبة في الوقت المناسب. لكن ما معنى الحياة بلا أخطاء، بلا أذى يعلمنا معنى أن نكون مع من يرمم جراحنا. قد كنتُ أسبح دائماً في اتجاهٍ خاطئ، ألحق بعلامات مزيفة وأظن أنها ترشدني إلى طريق الخلاص. وحين أصل؛ لا يكون هناك سوى جرحٍ قديم يتسع على خارطة الألم.

تقول لي أمي: إن الزمان يتكفل بترميم ما انكسر، وأنه عليّ أن أنتظر فقط.

أبي يقول: إنني أغبى من أن أتمسك بهذه الفرصة التي وضعها بين يديّ. الفرصة التي قد تغير حياتي للأبد، وقد فعلت. يندب حظه أحياناً لأنه لم يعطها لسعد: سعد رجال ويعرف كيف يحافظ على زوجته، ليتني مزوجه إياها. وعندما أسأل نادية/ الفرصة التي أصبحت أخسرها، لا تجيب أبداً.

كان بطنها يتكور يوماً بعد يوم. تسمح لي بأن أتحمسه

بأصابعي حين أصر على ذلك أحيانًا، ولم أرها تمسح عليه بكفها يومًا! كان يطول الوقت بها وهي في دورة المياه، فأقلق عليها، اضرب الباب منادياً باسمها، أسمع صوت أشياء تقع قبل أن تجيبني بأنها ستخرج الآن. وعندما تخرج يكون وجهها متعبًا، تتألم، أسألها: ما بك؟ تجيب: أريد أن أنام.

كنتُ أراها تهرب إلى النوم من الحياة معي، هو طريقها المختصر لتمرير الأيام بسرعة على التقويم.

ثم أصبحت تتهرب مني بطريقة تقليدية، تقول إن رائيحتي تزعجها، وتعزي ذلك لأن حملها هو ما يتسبب بنفورها مني. في البداية طلبت مني أن أنام في مكان آخر، بعد ذلك قالت أنها ستذهب إلى بيت أبيها، هناك لن تكون لي رائحة. وافقت على مضض، وقلت لنفسني كما كانت تقول لي أمي: عليّ أن أنتظر.

أدركتُ أن الحياة معها إن استمرت، لن تكون سوى جحيم نسكنه! يراه البعيد جنةً، ولا يفهم معنى أن تبتسم وأنت تتألم. حاولت أن أصلح ما فسد دون أن نتبه له، حملتُ نفسي وذهبتُ إليها في بيت أبيها، لكنها لم تكن هناك. أخبروني أنها تخرج من البيت كل يوم لتزورني. لم أشأ أن أفسد كذبتها، وأكدت لهم ما كانت تقوله.

في اليوم التالي، ركنْتُ سيارتي قريبًا من البيت. كانت الشمس تحرق جلدي، وما في قلبي يحرق روحي. انتظرتُ إلى أن غابت الشمس، ومن ثم رأيتها تخرج. تتلفت يمينًا وشمالًا، حتى توقفت سيارة بيضاء أمامها. صعدت إلى مقعد الراكب الأمامي بسرعة، وانطلقت السيارة.

لم ألحق بها، ولم أرد معرفة من كان معها.

بعد يوم آخر، أرسلتُ لها بأني أرغب برؤيتها. قالت إنها ستزورني اليوم في المنزل، وفي ذات الوقت الذي رأيتها تخرج للسيارة البيضاء، طرقت بابي.

خلعت غطاء وجهها، بينما ظلت ترتدي عباؤها وكأنها تخبرني أن وقتي معها سيكون قصيرًا. جلست أمامي على الأريكة. لا تنظر إليّ، تعبت في اللعب البلاستيكية المتناثرة على الطاولة لتجنب الحديث معي. ^{أحمد}

كنت أتردد في السؤال عمّا رأيت، شعرتُ بأنه سيكون حديث أخير بيننا.

حينما ترمي بكلماتٍ جارحة؛ فلا يبقى لك في القلب مكان، لكني لم أكن في قلبها أبدًا! أدرك منذ مدة طويلة، لكنني حاولت حتى أصبحت أحفر قبرًا يتسع لكل شيء كان بيننا

تشجعتُ وقلتُ لها عن حادثة الأمس. لم أكن أنتظر منها
اعترافًا صريحًا، كنتُ أمني النفس بقصة كاذبة تخبرني بها
لينتهي هذا الجحيم الذي نعيشه. أصدقها وإن لم يفعل قلبي،
وتعود إليّ كمن يحاول أن يمحي خطيئته بخطيئة أخرى.

لكنها كانت صادقة تمامًا، لم تتهرب من الإجابة، تحدثت
معي كما لم تفعل من قبل، كانت الكلمات تخرج من فمها
واحدة تلو الأخرى دون توقف... كان قلبها يتكلم.

(تعلم أنك لم تكن سوى رجل غريب أعيش معه. حاولتُ
أن أحبك، ولكن ماذا عساي أن أفعل بقلبٍ مزدحم بصورة
شخصٍ آخر. أنا وأنت يا غسان لن نكون سوى قطعتين
مختلفتين.. حاولوا أن يربطونا ببعضنا البعض، حتى اهترأنا
ولم يعد هناك حيلة ليصلحوا ما أفسدوه بنا. تريد أن تعرف
مع من كنت؟

حسنًا، اقبل إذاً بالحقيقية كما هي إن كانت ما تسعى إليه.
كان الشخص الذي أحب حقًا، الشخص الذي بنيتُ أحلامي
معه لأربعة أعوام كاملة بخريفها وشتائها، بأيامها الحزينة،
وتلك الأخرى السعيدة. الشخص الذي لم يحدث أن أخلفت
عهدي معه، ولم يحدث أن تنازل عني أبدًا.

لم يكن يفصل بيننا سوى أيام معدودة لتصبح آمياتنا واقعًا

انتظرناه، اتفقنا أن يتقدم لي خلال أسبوع، لكنك جئت أنت وأفسدت كل ما أردنا أن نكون عليه يومًا ما. هل تعلم أنني رفضتك مرات عديدة؟ بكيت لثلاثي عشر مرة من أجل حب، لكنهم لم يبالوا بقلبي. أخبرني أبي أن لا مكانٍ لديه لي إن لم أكن لك. كان يعلم مسبقًا بمن أحب؛ فأقسم بالله ألا أكون معه ما دام قلبه حيًا.

أتدري أنني أخطأت باسمك مراتٍ عديدة أيضًا؟ كنتُ أناديك باسمه.. الاسم الذي لم أتخيل أن أكون مع غيره. هناك شخص واحد يستحق كل حواسك، يركز في الذاكرة كجبلٍ لا تقوى على التخلص منه، والانتماء لمكانٍ أو شخص آخر. أما أولئك الذين يحيطون بك دون أن ترغب بقربهم؛ فليسوا سوى عقبة طارئة يجب أن تجد لها حلًا.

ستقول أن لا ذنبك لك في هذا العذاب، لكنني أخالفك الرأي. ذنبك أنك حرمتني من حلمٍ وحيدٍ كان في صدري. لم أكن امرأة سيئة يا غسان. فلماذا تسيء لي الحياة بهذه الطريقة الفظيعة!

في مرحلةٍ ما، أردتُ أن أخبرك بكل ما في قلبي. رأيت فيك الجانب الطيب، وقلت أنك ستفهم هذا. ستركني أعود إلى من حال بيني وبينه القدر، وسينتهي عذابنا، عذابي أنا على

الأقل! حتى أصبحت أحمل في داخلي طفلك.

كرهت نفسي أكثر، وكرهتك حتى أردت أن أؤذيك.

كنت أقفز على الأرض وأدعو أن يسقط من بطني ما كان يزيد عليّ ثقل الحياة. ومرات أخرى كنت أضرب بطني، ولم يحدث أنني ندمت على ذلك. وإن كنت ترغب بمعرفة السبب الحقيقي لتأخري أحياناً في دورة المياه؛ فأظن أن أفكاراً عديدة وصحيحة في رأسك الآن.

أرجوك، توقف عن محاولة اللحاق بما يمكن أن يصلح

بيننا

ليس بيدي حيلة، هذا القلب معطوب، وليس بوسعنا أن نغير ما يهوى الفؤاد. نحن في ظلاله تائهون، ضائعون، ولا نقوى على البحث عن ملجأ آخر.

أعدك أن ينتهي كل شيء، فور أن أضع طفلك. هو لك، لا أريده. فقط امنحني الفرصة التي ضاعت من يديّ بسببك.. أن أكون مع الشخص الذي أحب، وأقولها لك الآن بكامل قواي: لا أريد حياة ليست معه).

*

ليس لرجلٍ مثلي اختيار في حياته، كانت تسير بي الحياة لمحطاتٍ لا أعرفها، وكنتُ أظن أن كل محطةٍ جديدة ستكون وجهتي الأخيرة، حتى طال الترحال بي؛ فلم أكن سوى غريبٍ مع كلٍ من أردتُ الحياة بهم.

انتهى كل شيء بيني وبين نادية، لم يعد ثمة كلام أو لقاء. ما زلتُ أذكر حديثها، مواضع سكونها فيه، علامات غضبها. وحينما يتحدث قلبها عمن أحبت.

إنها التفاصيل الصغيرة، تلك التي كنتُ أجمعها منها، وأظن أنني بهذا أخلدها في قلبي. الآن، لم تعد سوى زجاجٍ متحطم أدوس عليه لأنزف أكثر.

خمسة شهور هي كل ما يفصلنا عن شارة النهاية لهذه المسرحية التي لم نكن بها سوى ممثلين لم يحسنوا إتقان أدوارهما بالشكل المطلوب. ستضع الطفل، ومن ثم ستختفي من حياتي للأبد. هكذا كان الاتفاق.

كانت الأيام تمضي ببطء غير معتاد، ولا ينقضي يوم حتى يضع فيني من الهم أثقالاً.

حينذاك، لم يكن في رأسي سوى فكرة واحدة، أن أغادر هذه الأرض. إن كانت العتمة والوحدة نهايتي هنا؛ فما أريده هو أن أحتفظ بالنور في داخلي، بنوافذ مختلفة؛ كلما مللت الظلمة أخرجت رأسي منها.

سألت نفسي: ماذا عن الوجوه التي ستفتقدها يا غسان؟ عن الأماكن التي ستشتاق لها؟ عن التواريخ التي تعيدك دائماً حيث بدأت؟

لا أريدها. لا أريد لجوءاً لأرض واحدة، أريد أن ألجأ للسماء! السماء التي كل الأراضي في نظرها واحدة. قد يكون ما تبقى لحياتي أقصر مما مضى، لا يفيد أن أعيد عليها ذات الصور. الوقت نرد صغير لا تعرف على أي رقمٍ يستقر، لا تعرف ما يمكن أن يعطيك وما يستطيع أن يسلب منك.

سأوظب حاجاتي، وأنهى عملي هنا ثم أرحل بعيداً. هل لديك ما يكفي من مال؟ رصيدي البنكي يقول أنه يسمح برحلة محدودة المحطات.

ثم تعرفتُ على سمير من خلال بحثي على بعض المواقع الإلكترونية المهمة بفرص الاستثمار. لبناني يحمل الجنسية الأسترالية، تعرفت عليه من أحد المواقع الإلكترونية، كان يبحث عن شريكٍ يموله ليفتح مطعمه، ووجدت في هذا

فرصة مثالية للهروب، وتبدو أفضل مما فكرتُ به مسبقًا؛ حيث يمكنني الإقامة في «بريسين» بلا مشاكل إن كنت صاحب عملٍ تجاري. اتفقنا على الشراكة؛ فجهز لي تأشيرة عمل، وظللت أنتظر لحظة الهروب.

في العاشر من تشرين، اتصل بي عبد الرحمن، أخو زوجتي نادية.

- نادية بتولد، تعال بسرعة.

حين وصلتُ إلى مستشفى الولادة، كانت نادية تتألم. عيناها تنحسران، ووجهها يظلم كلما صرخت. كنتُ أراها واهنة.. ترتجي كل من يمر من أمامها أن يضع نهايةً لألمها. حين تنبّهت لوجودي أشارت لي بيدها أن أقرب منها. وقفتُ بجانبها فنظرت إليّ بحبور، كانت المرة الأولى التي أرى عينها تبسّمان. قالت: سينتهي كل هذا يا غسان، ثم سنعود معًا، أعدك أن أحاول مرةً أخرى.

في لحظات الضعف نقدم تنازلاتنا على هيئة قربانٍ إلى الله لتنتهي أوجاعنا ونعود في سلام. في تلك اللحظة، حيث الهوان.. ندرك كم كانت قاسيةً كلماتنا! كم كان عظيمًا الجرح الذي خلفناه في صدور من أردوا أن نكون معهم! أولئك الذين أغلقنا أبوابنا أمامهم دون أن نبالي بضياعهم وليالي البكاء التي

تمطر فيها قلوبهم قبل عيونهم.

هناك نهاية لكل أمر. إنها البداية ذاتها لأمر جديد يصطف على قائمة الأقدار دون أن ننتبه له.

وما بين كل نهاية وبداية؛ نجد أنفسنا نقفز على خيط رفيع ليس هناك من قاع تحته سوى شفا حفرة من تيه!

قالوا لي إن العملية القيصريّة لن تستغرق أكثر من ساعة ونصف، ولكن مرت أكثر من ثلاث ساعات دون أن يخرج أحد ليزف البشرى. بعد ذلك بساعةٍ أخرى، أخبروني أنني أصبحتُ أبا، ومن ثم أضافوا أن باباً في السماء قد فتح لتصعد روح أقسمت ألا تقبل بحياةٍ لن تكون مع من يرغب به قلبها! هكذا ببساطة، انتهى كل شيء. رحلت نادية، وبدأت حكاية أخرى! تيهٌ آخر.. أبطاله: أبٌ وحيد، وطفلٌ اسمه فهد.

*

كان يجهش بالبكاء كلما حملته؛ فلا أقدر على أمر سوى أن أبكي معه.

له وجه أمه، عيناها وثرها الصغير. بقدر رغبتى بأن أبدأ معه حكاية أجيد الإمساك بتفاصيلها، وأسيرها كما أرغب؛ كنت أشعر بأنه حملٌ ثَقِيلٌ لا طاقة لي به. لم يهون عليّ الأمر سوى زوجة أخي سعد، ريم، التي احتضنته كما تفعل الأم. أرضعته من صدرها حتى امتلأ جسده. كانت له أم حقيقية، تعطف عليه، وترعاه بسرور، وإن حاولت أن أخذه منها تتكدر. ربما لأنها لم تنجب ولدًا من قبل، قد حاولت حتى سكن قلبها اليأس؛ فأصبح فهد فرصتها لتعيش الأمومة.

أخي سعد لم يمانع من ذلك، كان سعيدًا لرؤية زوجته تنشغل بشيء عدا المسلسلات التركية، وحين أخبرته بأني سأهاجر لمكان آخر، قال: ابنك بالحفظ والصون، الله معك. قطعت التذكرة، ووظبت حقائبي. رغبتُ بأن أودع أبي، لكن شيئًا ما منعني. أخبرت سعد بأن يتكفل بالمهمة، وأن يجد لي

مخرجًا من لومه على فعلي هذا. حين وصلت المطار، أرسل لي سعد يخبرني أن أتمم ما طلبته منه. سألته عن ردة فعل والدي؛ فأجابني: لم يقل كلمة واحدة عنك، لكنه بعد ذلك تحدث عن عقارٍ جديد يرغب بشرائه!

في هذه المدينة «بريسبين» التي تنام على الطرف الأقصى لخارطة العالم، بدأت رحلة غربتي.

التقيتُ بسمير بعد يوم من وصولي. ومن ثم ذهب بي إلى مكان المشروع. مطعم شرقي على ضفاف النهر في منطقة «الساوث بانك» حيث يتصل الليل بالنهار دون أن تتوقف الحركة.

بدأ لي سمير أنه على اطلاع مسبق بأمور التجارة، ولا أذكر كم كان المبلغ الذي دفعته له تحديدًا؛ فقد كان دفعات متعددة ومختلفة المقدار، ولم أكن أبالي بما أدفعه! أنا هنا، بعيدًا عما هربت منه، وتلك هي تجارتي الراحبة.

تركته يقوم بكل شيء، حينما يحتاج المال يأتي إلي، أدفع ويستمر العمل في المطعم. بعد بضعة أشهر بدأ المال ينهمر، ربح جيّد، مبلغ يتراكم في رصيدي، سمير يتسم حينما يراني، وأنا وحيد.. وهذا جيّد.

استمر الحال لعدة شهور جيدة، ثم اختفى كلّ شيء.

سمير لا يجيب على هاتفه وحين أسأل عنه في المطعم؛
لا أحد يجيبني بما يفيد. مضى شهر، ثم شهران، وحين حلّ
الشهر الثالث كنت أترصد له أمام منزله الذي وجدته بصعوبة.
أوقف سيارته؛ فركضت نحوه. لم يكن مندهشاً حين رأيته!
فقط كان متردداً في قول ما عنده. سألته عن سبب غيابه؟ ثم
قلت له: لا شيء وصلني منك منذ ثلاثة شهور، تعرف أنني
وضعت كل ما لدي معك، والآن أعيش على ما يصلني منك.
ما بك سмир؟!

- لن يصلك شيء بعد الآن، ولا شيء لك لتطالبنى به.
في نهاية الأمر اتضح لي أنه نصب عليّ، وكل ما قدمه لي
من أوراق تثبت سهمي ومشاركتي كانت مزيفة. حتى تأشيرة
العمل التي جئت بها لم تكن سوى تأشيرة عامل!
لم تفد محاولتي في التردد على مكاتب المحاماة، كانوا
يرددون في وجهي: القانون لا يحمي المغلفين.
بعد بضعة أسابيع نفذ رصيدي البنكي، صاحب الشقة التي
كنت أقطنها أخبرني أنه سيمنحني أسبوعاً واحداً بالمجان..
ويتوجب عليّ المغادرة بعد ذلك. أصبحت أبيع ما لدي من
أثاث ومقتنيات، حتى نفذ كل شيء.

كان باستطاعتي إنهاء معاناتي بمكالمة واحدة، رقم أعرفه،

صوت أحفظ نبرته، وشخص أعرفه جيدًا، إلا أن الكبرياء تملكني، حتى وجدت نفسي تائها ووحيدًا في شوارع بريسبين. وهناك التقيت عائلتي الجديدة:

جورج، رأسه الأصلع، وحكاياته الطويلة عن زوجته التي أخذت كل شيء منه، كل شيء بناه لوحده، كل شيء في يوم واحد تجرد منه وفضل أن يستلقي في زوايا الطرقات على أن يعود إليها.

ماندي، الشقراء الطويلة، جسدها ماجن، تغطيه عبارات وجماجم وفراشات موشومة، لم تقل كيف انتهى بها الأمر هنا! تكتفي بالضحك.. الضحك طويلاً، وهي تدع الشراب في فمها.

لا أعلم كيف أصبحت منهم، كيف كانوا لي عائلة مشردة وقذرة، لكنها عائلة على كل حال.

كنت أقضي النهار في البحث عن وظيفة، لدي شهادة في الإعلام، لكن لا أحد يقبل هذا الغريب.

حين يحلّ الليل، أذهب لباحة مهجورة، بالقرب من بيت دعارة على شارع «سبرينق». سيارات الأجرة تقف بكثرة هناك بانتظار الزبائن المنتشين، وفي الجهة الأخرى للباحة أماكن محجوزة لمشردين أمثالي.

في البدء كان صعبًا التأقلم، رغم أنهم جميعهم مشردون..
لكن لا أحد يرحب أو يقبل بضيوف جدد. أذكر أنني ذات
مرة نمت تحت مظلة ملونة ومعلقة لم أر أحدًا يقترب منها
لأيام. كنت منهكًا فغططت في نوم عميق، حتى استيقظت
على ركلات رجل أسود، كثيف الذقن، سيء الرائحة، يعلق
سيجارة فوق أذنه، ويرتدي ملابس ثقيلة في صيفٍ طويل.
نهضت مسرعًا بالابتعاد وشتائمته تصلني حيثما اتجهت في
هذه الباحة الكئيبة.

حينها اقترب مني الرجل الأصلع، وكان يسخر من شكلي
المذعور، قال:

- هذا إيرك. معتوه، لن ترغب بمعرفة ما يستطيع فعله هنا.
بالمناسبة، أنا جورج.
- غسان، أنا غسان.
قلت له.

- لا بد أنك لست من هنا.. شكلك، اسمك، ولهجتك
تقول ذلك.

- نعم .. نعم هذا صحيح.
- حسنا، إن كنت ترغب بالسلام هنا؛ فأشك أنك ستحصل
عليه. هذه غابة! رغم ضعف الجميع.. من يجد فرصة لنهشك

فلن يتوقف ولن يوقفه أحد. كن حذرًا، ولا أمانع من الرفقة متى ما رغبت بالتحدث.

وظللت وحيدًا في هذا المكان، حتى أمطرت ذات ليلة.. الصيف هنا ماطر، لا تفرق بينه وبين الشتاء. المطر عنوان دائم لأيامه. كنت قد تبللت بما يكفي ليشفق علي جورج. نده علي من بعيد؛ فاقتربت من مكانه. أخبرني أنه بإمكانني الاختباء من المطر تحت سقفٍ رُسمت عليه علامات وكلمات بذيئة يستقر تحته.. هذه ضيفة لا ترد في وقت كهذا؛ فقبلت، ومن هنا بدأت علاقتي به.

كان لا يتردد في التحدث عن حياته السابقة، أخبرني أنه عمل ككبير مصرفي أحد البنوك، يقول أنه كان يجني ما يوفق المئة ألف دولار سنويًا، لديه سيارة فارهة وبيت كبير في ضاحية تطل على البحر.

لم أصدق، ظننت أنه يكذب ليمر الوقت دون أن ينتبه له، حتى أخرج صورًا فوتوغرافية بحوزته، في إحداها، يقف مبتسمًا وخلفه سيارة مرسيدس من طراز التسعينات، طلاؤها يلمع كما تلمع صلعته تحت شمس ظهيرة.. صورة أخرى يظهر فيها بسرّوَالٍ قصير ومن أمامه مسبح أولمبي طويل وكبير.

ينظر إليها وهو يحكي قصته، ثم يشتم ويشتم حتى يزبد فمه. فهمت منه أن زوجته استطاعت أن تقنع القاضي بأحقيتها بكل شيء يملكه في جلسات الطلاق، ثم تركت له أشياء بسيطة حولته إلى إنسان مكسور، فقد عمله بسبب كثرة تغيبه والإكتئاب الذي أحاط به حتى تمكن منه، ثم انتهى به الحال في هذه الباحة.

- المضحك بأن من يهزمنا أناس وثقنا بهم، ومن يحطمنا أشخاص أحببنا قربهم.
قال لي في ليلة مظلمة.

يسألني بين الحين والآخر عن قصتي.. أخبره عن سمير النصاب وما فعل بي.. يقول متهكماً:
- لماذا لا تتصل بـ «يور ولثي فاميلي»

أجيبه بأن لهذه قصة أخرى؛ فيحثني على البوح بها وأمتنع.
تنضم إلينا ماندي بين الحين والآخر، المرأة التي يرغب بها الجميع هنا، لكنها لشخص واحد فقط لا يقبل المشاركة: إيرك الأسود.

في أحيان كثيرة تكون منتشية، العشبة الخضراء لها مفعول سحري عليها. رأيتها ذات مرة وأنا أتسكع في ساحة السوق تمسك بغيتار، تعزف وتغني بهدوء، بينما تمتلئ العلبة التي

أمامها بقطع معدنية صغيرة تصرفها على ما تدخه، صوتها مريح جدًا، أغانيها ريفية هادئة، شفتاها تتحركان بنعومة مع ريشة الغيتار.. الناس من حولها يخلدون أغنياتها في هواتفهم المصوبة حيث تجلس.. تشعر أنها خارج العالم، خارج الضجيج، تحلق وحيدة.

تنتهي الأغنية، تعود إلى الأرض، يصفق الناس، يتفرقون وتبقى وحيدة.

مرّ شهر وأنا مشرد، خسرت وزنًا كبيرًا، ملابسي الرثة لا تشي بتحسّن للحال، تنقلاتي بين المحلات والأسواق لا تنبئ بفرصة جديدة.. الصمت يتلعني، والحاجة تأكلني! استسلمت أخيرًا، أخبرت جورج بأني أريد هاتفًا يمكنني من خلاله الاتصال برقم دولي، أشار لي ناحية المظلة الملونة.. حيث ينام إيرك.

كنت خائفًا من الاقتراب منه، لا شك بأني سأعود بلا فائدة إن ذهبت إليه، هناك حلّ واحد، ماندي، قد تستطيع المساعدة. حين عادت ماندي ليلاً أخبرتها بحاجتي للهاتف، كانت مترددة بعض الشيء، قالت:

- لو أحس باختفائه ستكون نهايتنا.
قلت لها بأني سأنتظر، وسأكون هنا في أي وقت يمكنها

أن تخطف الهاتف، ولم أنم تلك الليلة! كنت أنظر إليهما من بعيد.. إيرك يغط في نوم عميق، ماندي تتقلب بين الحين والآخر، وبعد ساعة رأيت ظلها يمشي على مهل بين جسد إيرك والأغراض المتناثرة حوله، علمت أن الوقت قد حان.. ماندي تبتعد عن المظلة بحذر، أنا أحاول تذكر الرقم، قطعت ماندي نصف المسافة نحوي، نسيت آخر رقمين، ماندي تقف أمامي وتطلب مني أن أسرع وشعلة سيجارتها تحمر وتحمر، أصابعي ترتجف.. الهاتف يرن، ويرن، لا أحد يجيب، حينها حاولت ماندي أخذ الهاتف مني، توصلت إليها باتصالٍ آخر، الهاتف يرن، يجيب الشخص الآخر من مكانٍ بعيد، أتحدث ببطء:

- سعد، هذا أنا.

أسمع صوت أنفاسه، الصمت يستمر، أخبره:

- أحتاج خدمة صغيرة يا سعد، لن أستطيع أن أطيّل بالحديث الآن.

يتحدث أخيرًا:

- أسمعك.

- سجل عندك هذا الرقم.

يطلب مني الانتظار.

أخرج البطاقة الصفراء من بنطالي وأنتظر
- قول.

ألمي عليه الرقم الطويل، ويسجله وهو يعيد عليّ أرقامه.
- اذهب للبنك غدًا، تعرف ما أحταجه الآن. لن أستطيع
التحدث أكثر.

يسألني قبل أن أغلق الخط:

- غسان، أنت بخير؟

- اذهب للبنك يا سعد.

أقول له وتنتهي المكالمة.

لحظات وتمدد جسد ماندي بالقرب من إيرك، الليل
هادئ، واستمر كذلك.

في اليوم التالي كنت أقف في طابور طويل في البنك،
حارس البنك اعترض طريقي قبل أن أدخل، هيّتي لم توحى
إلا بالتسول! أخبرته بأنني عميل في البنك، لم يصدق؛ فقلت
له رافقني وتأكد من ألا يحدث مشاكل هنا.. وافق بعدما
تفحص جسدي بعصاه الإلكترونية.

حين جاء دوري، أخرجت جواز سفري وأعطيته للموظف،
طلبت منه أن يرى ما تبقى في حسابي، لحظات ثم أصبح
يسألني عن تاريخ ميلادي، تهجئة اسمي، سؤال الأمان

وإجابته، وحين تأكد من إجاباتي، أخبرني بالرقم الذي في حسابي. حينها تراجع الحارس معتذراً وبعينين متعجبتين.. سألني المصرفي:

- هل ترغب بالتوجه لقسم «كبار العملاء»؟



بعد ثلاثة أيام، كانت ماندي في مكانها المعتاد، صوت غيتارها فسحة للروح، وصوتها دعوة للرقص. حينما انتهت من غنائها اتجهت للعبة تحصي ما نالته من قطع معدنية، وبين القطع الصفراء الفضية، كان هناك ظرف ممتلئ بأوراق نقدية من فئة المئة دولار، كتب على وجهه «شكراً».

صرخت من فرحها..

سمعت صرختها وأنا أبتعد.



تعلمت من تجارب الحياة أن كل شيء تخوضه، جيداً كان أو سيئاً، يمكنه أن يغير بك الكثير، يمكنه أن يضيف لك العديد من الأشياء التي تفتقدها. فضلت أن أبقى في الشارع لأجد وجوهاً جديدة تضاف في قائمة الأشخاص الذين تجمعني بهم هذه الرحلة القصيرة/ الحياة أعني.. وأن أسمع حكايات كثيرة؛ فالحياة ليست سوى فيلم سينمائي يعبر ذاكرتك وأنت توشك على الخروج منها.

تسأليني أيتها العزيزة كيف أصبحت على مقاعد الدراسة. والآن أخبرك أنه لم يكن سوى غطاء لأبقى في هذه الغربة لوقتٍ أطول! عليّ أنسى ما مررتُ به، أو أن يطول بي الأمد في غربةٍ تستحيل إلى وطنٍ لا يغربل أفراحي.



تبكين أحيانًا لأن شطرًا من أغنية قد تعمق فيك حتى
ضرب أوتار الشعور. لا تجدين سوى صدري وسادة تبللنيها
وتسألنيها الطمأنينة. حينها لا أجد فيك سوى طفلة تهرب من
كلمات الغرباء وتحتمي بي، حيث تجد حقيقة واحدة: أنني
متيمٌ بها.

قد كانت اللحظات معك كدعواتٍ للحبّ. تظنين أن معي
الأمان، والراحة، والسكون، وأتيقن بأنني أجد معك الحياة.
قد شاء الله بأن نلتقي، ثم في بحر الغياب نرتمي.

ما ذنب عاشقٍ لو صالكٍ يرتجي أن يغيب في الهجر وتعود
رسائله حزينّة لا تجد كفًا تمسح غبارها، وتشر حروفها!
ما ذنب من تعلقت روحه بأطراف أصابعك، تقللين حينها
وحزنها كما تشتهين، ولا يملك سوى دعاء يلهث به: ياربّ
الوصال.. سلّم سلّم!

ليس من الصعب أن أتخيل ابتسامتك تتجه نحو وجهٍ آخر،
ما ينهكني أن يكون في قلبك الآن شخصٌ آخر.

معضلتنا، أيتها السمراء كقرص شمس، أن النسيان محض
خيال، وأن ما نتركه في قلوب من نغيب عنهم.. نهر جارٍ لا
ينضب. حينما تكونين سحابة مطر؛ فماذا أفعل بطفلٍ يسكنني،
كلما هطلت هجرني واختار أن يتبلل بك!
كل مكان تحطين فيه هو أرضي، وكل عنوان لك هو دائماً
وجهتي.

حينما أخبرتك بقصتي، بمحطاتي، بلوعتي قبل أن يستقر
على ضفة بحركٍ قاربي، أرسلت لي رسالةً بريدية كما يفعل
الغرباء:

«لا تصالح

إما حبٌ صادقٌ بلا إشراك

وإما سلامٌ عليك، عليّ، إلى يوم يبعثون.

لا يكفيني نصف حبّ، نصف جنون، ونصف قلب.

إنني أريد مجنوناً لي وحدي، يراقصني كما لو أنني فراشة

تلهو على كفيّ

يحكي لي عن قصصه الخيالية، حتى أنام بين ذراعيه طفلةً

سعيدة.

يناديني باسمٍ لا يصح أن يأتي من أحدٍ سواه، ويكلمني

بصوتٍ لا يصح أن يذهب لسواي.

وإني لك روحٌ لا تتوقف.. عن حبّك، عن اللحاق بك،
بضحكاتك؛ لئلا تعبر مكانًا آخر لستُ به
وعن تدوين كلماتي الحالمة لتقرأها ذات يوم.. وتجيب
نداءها..

أزاحت كلماتك حزني. وجدّني أتساءل: كيف استطاعت
أن تخترق قلبًا لا يفهم الكلمات حينما تأتي محمّلةً بالحبّ؟!
حتى أدركت أن الكتابة لم تكن سوى حيلة امرأة لم تستطع
الكلام، وأن في داخل كل امرأة كاتبة تخرج حينما يحين
الوقت لكسر رتابة الكلام.
عاهدتك ألا أغيب، ألا أتوه عنك، وألا يكون في صدري
أحدٌ سواك.

كنتُ مجنونك الذي يرمي بعقله ويتبع قلبه.. القلب الذي
ينصاع إليك وفيك ومعك. أليست الحياة أقصر من أن نضيعها
في واقع لا يترك لنا قاربًا صغيرًا نهرب به إلى ضفافٍ نشتهيها
وننتمي إليها!

أقسمتُ لكِ أن أصيغ معكِ حكايات مجنونة، وحبًا يتبعه
السائلون عن الخلود في صدور من طابت الحياة لهم بقربهم.
حين تحزينين، يكون لكِ حزن القمر.. ينطفئ جزءٌ منك،
بينما يبقى الآخر متوقدًا يبحث عن أمل، عن طريقٍ للعودة،
حتى يكتمل في روحكِ البدرُ وتخرجين بالنور مدارًا يتبعه
سائر المغيبين في دوامة العشق.

كنتِ حبيبةً ترتدين الصداقة لثلا ينكشف سرنا، لكنكِ من
فرط الجنون تتعلقين بي كعاشقةٍ لا تخاف فضيحة حبٍّ في
زمنٍ تضيعنا فيه بنودُ القبيلة وعاداتُ تنحربنا كل وصل!
فماذا حلَّ بنا يا صديقتي، كيف فرقوا بيننا ونحن هائمان،
نشبت ببعضنا لثلا يحيل بيننا قدر نندم عليه.

- هل سنكون عائلة يا غسان؟ أعني أنا وأنت ... وفهد؟

أصمت حائرًا. فتواصلين الحديث.

- يجب أن يكون معكِ، أنت أبوه، وليس هناك في الدنيا
شيء يحول بينكما. كن أبا طيبًا له، أو كن لا مباليًا، لا بأس!
ولكن كن معه. لا تجعله يكبر بعيدًا عنكِ، والمسافة التي
بينكما لا تجعلها عذرًا. اجلبه إلى هنا إن لم ترغب بالاستقرار
في الوطن. لا أدري كيف استطعت أن تهجره هكذا رغم قلبك

الطيب، لكن الأيام كفيفة بإصلاح ما بينكما، ولبدء علاقة متينة بين أبٍ وطفله. صدقني يا غسان، لن أكون حازماً بينكما، أريده.. طفلك هو طفلي.

شعرتُ بكِ تعيدنين ترتيب حياتي، تضعين الأشياء في مكانها الصحيح، وتفتحين نوافذ قد هُجرت؛ لتعود شرفةً ينام فوقها الطيور.

نظرتُ إليك، وكنتُ قد أدركت تماماً ما أقوله، ولماذا أقوله.

- هل تتزوجيني؟

نهضتِ ووقفتِ أمامي. مددتِ يدكِ صوبي كما تفعلين كلما أردتِ أن تغيري مجرى الحياة. ثم قلتِ:
- ظننتك لن تسأل!



حين حلت إجازة «الإستر»، كنا نوظب حقائبنا معًا..
نسأل بعضنا عمّا نكون قد نسيناه، عمّا يمكننا التخلي عنه في
هذه الرحلة القصيرة. قلتُ لك حينذاك: رجلٌ لديه أنتِ، هو
مستعدٌ للتخليق على الدوام!

في الطائرة المتجهة إلى دبي، كانت الشمس أقرب إلينا،
تشرق على خيطٍ من سحب، ضوءها يقلق عينيك في
سباتهما، فتقليبن وجهك هربًا منه، حتى يستقر رأسك على
كتفي. وضعتُ كفيّ على شعرك، ورحتُ أهذي بكل ما في
قلبي لك. لم يبدُ أنك تسمعينني، ولكنني واصلتُ الكلام؛ علّ
قلبك كان مصغيًا لي.

حين انقضت ست عشرة ساعة من الهذيان، والتخليق، كنا
قد وصلنا إلى مطار دبي.

وأمام بوابات الترانزيت، كان الأمر أشبه بوداعٍ عابر! قلتُ
لي بأن رحلتك إلى الدمام ستنتقل من صالةٍ أخرى، وأنه
يتوجب عليك الذهاب الآن.

توقفنا كغريبين يحدقان في بعضهما البعض، لا ندري ما
يمكن أن يهون علينا هذا الغياب، وكل كلمةٍ تخطر في بالنا هي
أقل مما يقال لحبيب يحمل الحياة معه، حتى ضممتني نحوك
بقوة، شعرتُ بكِ تنفيذين إلى ضلوعي، تبعثرينها ثم تعيدنين

ترتيبها. قلت لي بأنك ستفتقديني. أجبته أنها ستكون أيامًا قليلة، ثم نعود معًا كعائلة لا كهاربين إلى الغرب.

هزرت رأسك تأكيدًا على إجابتي، ثم رحت تبكين بخصلات شعرك. أردت أن أسألك عما يدور في خلدك، ولكن لم تدعني قبلك التي جاءت على عجل، ثم تبعها صوت أقدامك المبتعدة.



حين استقرت على كرسي الطائرة المتوجهة إلى الرياض، أخرجت هاتفي وأرسلت إلى سعد بأني سأكون في المطار بعد ساعتين. سرعان ما اتصل بي، كان صوته متعجبًا من رسالتي، أكدت له أنني قادم، فقال:

- فهد... سيكون معي.



عندما أعلن الكاتب عن بدء الإقلاع، تذكرتُ الطريقة التي
حدث بها وداعنا، خصلة شعرك التي تلتف على أصبعك..
وعيناك الشاردتان. فكرتُ بأي جزءٍ كذبتُ به.. هل كان مقدار
حزنك على فراقنا المؤقت؟ أو أنها دمعة بدت صادقةً في
حينها؟ أم أنه لن يكون ثمة لقاء آخر بيننا؟!
تجاهلت كل ما دار في رأسي.. قلتُ لا بد أنها كانت متعبة
ولا تدري ماذا تفعل.

كانت الطائفة تتعلق بالهواء شيئاً فشيئاً حينما اتصلتُ بي،
أجبتُ مكالمتك، ولكن لم أفهم ما تقولينه:
- غسان ... ارجع... لا تذهب..... آسفة.
وانقطعت المكالمة...

*

تعلمت أن أحبك في هجرٍ طويل أو في وصالٍ مديد.
وعلمني حبك ألا أتوقف كلما حالت بيننا لحظات خوف،
دقائق قلق، أو ساعات من غيابٍ مرير. علمني أن رجلاً مهزوماً
لا يملك سوى الانتظار، وبضعة آمنيات لا يدري كيف السبيل
إليها! لكنه يحملها في داخله لئلا يسقط في هاوية لا عودة
بعدها.

كلما عبرت ذاكرتي لحظاتها، يولد نجمٌ جديد في السماء،
ويتهيأ بردٌ قاس في مكان ما، وتقول الورود كلمتها الأولى
دون خجل.

ممتلئاً بالفرح كنتُ، هائماً لا أبغي رشداً، أسير حيث يأتي
صوتك، وأقلب صفحات التاريخ لأضع اسمك أولاً حيث
يقولون: كان لها مجنون.



ظننتُ أن الأمر أصعب من أن يكون، لكن سرعان ما اعتدتُ على وجهِ فهد. لم يتأخر في مناداتي بـ «أبي» وكأنه قد عاش حلمًا طويلًا وقد تحققت أمنيته أخيرًا.

يسألني متى أرحل مجددًا، ومتى أعود إليه. أجيئه بأني لن أتركه، سأكون معه دائمًا؛ فيضحك ببراءته متناسيًا أياما طوالاً قضاها بعيدًا في غربةٍ لم يخترها. ويصفح كملاكٍ عن زلةٍ إنسان لم يرد سوى النجاة بروحه.

كان يسأل أحيانًا أخرى عن موعد عودة أمه. يقول أنها يجب أن تعود الآن؛ فلم يتبقَّ سواها لتكتمل اللوحة التي رسمها وكان يحدق بها في كلِّ يومٍ مضى، حيث يتصفني وأمه. يمسك بأيدينا لئلا نتركه، وفي خلفنا سحابة زرقاء صافية تختبئ خلفها الشمس.

أخبره أن للأمنيات حدود، وأنها معه في كلِّ مكان يذهب إليه. فيسأل: هل هي ترانا الآن؟ لا أقوى على الرد؛ فتنتقل أمنيته نحو السماء: ماما.. تعالي عندنا، بابا جاء!

حين يشرد ذهني بعيدًا عنه، أفكر بغيابك الطارئ، برسائلي ومكالماتي التي لم تجد ما أرادته، يقترب مني، ويسأل عما أفكر به. أخبره بأني أضعتُ شيئًا ثمينًا ولا أدري كيف أعثر عليه. يمسك بيدي، ثم يقول وهو ينظر إليّ:

- أخبرتني أمي ريم أن الله يسمع دعاءنا. أنا دعوت الله
وسمعتني!

- كيف يا فهد؟

- قلت له «جيب بابا لي».

ليت لي قلباً نقيّاً كقلبه، تنفذ دعواته بين السماوات إلى أن
تصل إلى وجهتها؛ فتعود الإجابة بالمسرات.



كان صبري ينفد يومًا بعد يوم، لم أترك شخصًا أعرفه إلا وتوجهتُ إليه بحثًا عنك. لم يكن من المعقول أن تغيب هكذا! تخلصين من كل طريقٍ يدلني عليك، وتختارين غيابًا طويلًا لا يشي بخير.

اتصلت بأثوني مراتٍ عديدة، وكان يخبرني في كل مرة أنه لم يتلقَ اتصالًا منك. يحاول أن يهدئ من روعي الذي يصله في صوتي وهو يسرد لي مشات الأعذار والأسباب. تنتهي مكالمتنا وأبقى في حيرتي.

طلبت منه ذات مرة أن يذهب إلى كل صديقة لك، يسألهم عنك، عن أي أمر يدلني عليك، ولكنهم كانوا لا يعرفون شيئًا عنك.

ظننتُ أن هذه خطة القدر المثلّى لي، نعود إلى الوطن، أطلبك من أخيك، تكونين لي، يعود فهد إلى حياتي، ونقضي ما تبقى في حياتنا دون أن نلتفت لكل حزنٍ مرّ صدورنا. لكنها تبدو الآن كطريق مسدود لم ننتبه لعبارة تحذيرية وضعت أمامه؛ فرحنا نفرق بين خطواتنا طمعًا في وجهته الأخيرة.. حتى ابتلعتنا هاوية في منتصفه.

الأيام المعدودة على موعد العودة كانت تتساقط من قلبي.. كلما مضى يومٌ شعرتُ بالعمر يأكل وجهي، وأعبر

سنين العجز.. وأرتجي ألا تكون لي خاتمة.. لا تكتمل بك.
تمهلي أيتها المستقرة في أعماقي، مالي لا أجد فيك حيناً
يعيدنا إلى سابق العهد حيث تتشابك أصابعنا، ونسير معنا
محفوظين بأغنياتك، بصوتك الذي كان يعيدني إلى طفولتي
حيث أتعلق بك، وأمطر معك.

في محاولة أخيرة لو كز وتر في قلبك، تذكرت رسالتك
التي بعثتها لي على بريدي الإلكتروني، وجدتها فرصة لأرسل
لك ما يضيق به صدري، ولأدحر كل عذر يمنع وصولي إليك:
(لم أكن أظن أنني في يوم ما قد أكتب إلى امرأة قد سكنت
صدري، حتى أصبحت عيناها راحتي وهلاكي، ولم يدر
في خاطري يوماً أنني أقع في شباك الحب ولا أملك سوى
الاستسلام. أكتب إليك اليوم وفي عيني بحر من الدمعات،
وآلف راية للحنين.

لا أحب لعبة الكلمات، وتفسيراتها، وطريق الكتابة الغارق
في المعاناة، لكنني أجد نفسي مجبراً أن أخطو إليك عبرها،
وأن أضع ما يثقل أيامي بالحزن والقلق على ميزانك.. سائلاً
إياك أن تحلي قضيتي، وتعديلي بيني وبين ما سرقه الغياب من
أحضان، ونظرات، وصوت كان يبعث في مهجتي الأفراح.

لم أدرك كم هو قاسٍ هذا الغياب! ومعنى أن أتوه في
خرائط الحنين، أبحث عن مخرج يدلني عن نصفى الآخر،
ذلك الذي أضعته دون أن أدري، وكيف أن تاريخي يستحيل
إلى لحظات معدودة، تغيب فيها كل الوجوه ويبقى وجهك
خالداً بها.

تخيلتُ حياتي لو أني لم ألقاك؛ فلم أجد سوى صورة
لوجهٍ كثيب يعيش في قوقعة من حزن.. ليس لديه غاية واحدة
سوى الهروب من كل ما تعلق في ذاكرته.

أنا من صالحتني الأيام عندما وضعتك في طريقي.

قد تخلّيت عن الحبّ منذ أن فشلت كل محاولاتي في
البحث عمن يشاركني ضحكة واحدة، ثم وجدته يسحبني
كالطوفان.. يغرقني وينجيني، يمتلئني ويحيني، ويعب في
صدري جنوناً، واشتياقاً، وطمأنينةً، وخوفاً، وما كان لي طوق
نجاةٍ منه! فرحتُ أساير موجه، حتى رمى بي في مكانٍ بعيد..
وحيداً أنتظر أن يهيج من جديد.

لا تعرفين كم أنا وحيد! ليس لي أحد سواك، ولا أعرف
قلباً يفهمني غير قلبك. محاط بفراغاتٍ لا أقوى على ملئها،
وأناسٍ يصعب عليّ الانسياق إلى أحاديثهم؛ فأختبئ كلصٍ
لا يدري كيف سُرق فؤاده. كل دعوة فرح تصير مزيفةً إن لم

تكوني فيها، وليس ثمة معطف أو حضن يقوى على هذا البرد
الذي يجتاحني سوى صوت أحبه.. صوتك!
ربما تجيبي رسالتي، وربما تتجاهلينها، أو لا تصلك.. وما
بين الاحتمالات، هناك رجلٌ ما يزال يبحث عنك.
حسبي أنني أراك هناك، حيث نعود إلى ما كنا عليه..
مجنونان.

(غسان)



حينما حلّ يوم العودة كنت أقف وحيدًا كشجرة تتساقط
أوراقها، تهزها ريح عتية وتقاوم في انتظار لحظة تعودين إليها.
أنتِ ماء قلبي، وغيابك موسم الذبول.

كان فهد يتعلق بكفي فرحًا لأنه يتنقل الآن إلى حياة أبيه.
أعدّ حقيته بنفسه، ولم يضع فيها سوى ملابس قليلة وتلك
اللوحة التي ما يزال يمني نفسه بأن تحقق صورتها.

وقبل أن نخرج للمطار، أخبرني أخي سعد بأن أبي يرغب
برؤيتي. كنتُ مستغربًا من رغبته التي تأتي في آخر الأوان.
منذ عدتُ إلى الوطن وأنا أبحث عنه، وددتُ لو أصادفه لمرة
واحدة وأقول لنفسي أنه ما زال لي أب. ولكنه إما في سفرٍ أو
في عزلةٍ مع زوجته التي قال لي سعد أنه تزوجها قبل ثلاثة
شهور فقط.

ذهبتُ إلى منزله بصحبة فهد وأخي سعد قبل أن نتوجه
للمطار، وحينما طرقنا الباب فتحت لنا زوجته. ألقىت نظرةً
خاطفة نحوها، ثم خجلتُ أن أنظر إليها مجددًا. تبدو شابةً
جدًا على كهلٍ تجاوز عامه الستين. ترتدي ملابس ضيقة
تظهر مفاتها.. تمامًا كما كانت عفاف تفعل. صوتها قوي
ومليء بغنجٍ مصطنع.

أجلستنا في صالة المعيشة، وظلت معنا. كانت تحاول عقد

جلسة ونام بيننا. تحكي لنا كم هي مغرمة بأبي، وكم أنها لم تتوقع أن تقع في حبه بهذه السهولة! تعدد لنا صفات به لم نعرفها منذ أن خرجنا من صلبه، وتسرد قصص رحلاتهم معًا. نظرتُ إلى أخي سعد وهي تتحدث؛ فأشار لي بحاجبيه أن أبتلع الكلام وأصطنع البهجة. كلما سألتها عنه؛ تقول سيأتي الآن.

بعدما مرت نصف ساعة على ثرثرتها، رأيته.. رأيت رجلًا يشبه أبي.

لم تكن له لحيته الطويلة، حلق ذقنه وأبقى على شاربه بعد أن صبغه بلون الشباب. يبدو بصحة جيدة، اختفت مشيته البطيئة.. وصار يمشي كشاب في ريعان عمره. ركض نحوه ابني فهد؛ فرفعه إلى الأعلى وهو يضحك قبل أن يضمّه نحو صدره. لا أذكر أنه كان لي لحظة عناقٍ مشابه، كل ما أذكره عنه هو لحظات بائسة، وخيبة أمل كان يلقيها عليّ مذ كنت صغيرًا.

اقترب منا وألقى السلام قبل أن يجلس على الأريكة. وكزني سعد بأن أذهب للسلام عليه؛ ففعلت. كان سلامًا باردًا لم ينظر فيه إليّ، اكتفى بكلمة واحدة: هلا.

قلتُ في نفسي أنه يستطيع أن يغير من شكله، وزوجاته،

وبيتاع منازل كثيرة بماله، لكنه سيقى غريباً في قلبي.

وددتُ لو أسأله: هل تذكر أمي؟ هل تعرف من أنا؟ أم أنك تتجاهل حقيقتك، وترتدي وجهًا جديدًا تظن أنه عمرك الحقيقي! وما قبله لم يكن شيئًا يستحق.

لكنني آثرت الصمت على أن أعيش معه حوارًا جديدًا يتغلب فيه عليّ بكلماته الجارحة.

كان يداعب فهد ويقبله، حينما أخبره بأنه سيذهب معي. سأله فهد قائلاً: جدي... تروح معنا؟ فلم ينطق بكلمة. حينذاك أدركت أنني أهزمه كلما هربتُ مبتعداً عنه، وصنعت لي حياة لا تستطيع يده أن تنفذ إليها.

مضى الوقت كرمحٍ يثقب صدري، أشرتُ إلى سعد بأنه يجب علينا الآن الخروج؛ فانتبه لإشارتي وقال:
- إلى أين؟

- المطار. رحلة غسان بعد ساعتين فقط.

رد عليه سعد. التفت صوبي للمرة الأولى وقال لي:

- وما لديك في هذه الغربة؟ ألم تنتهِ رحلة الهروب هذه؟ حين عدتَ ظننت أنك كبرت وأصبحت رجلاً، لكنك كما أنت، غبي ولا تفهم ما تطأ قدماك فوقه. تركت ابنك يكبر دون أن تكون بجانبه، تركته يبكي على فراقك، كلما رأيته سألني

عنك؛ فلا أجد ما أجيبه به. انظر إليه، انظر جيدًا، هذا ما فوته من حياتك. قد لا تحترمني، وقد أكون لم أعاملك بلين كما كانت تفعل أمك. لكني أفضل منك؛ فأنا كنت هنا. معكما أنت وأخيك، ولم أغادر كما أبدًا.

لم أنس بينت شفة، كنت أنظر إلى عينيه مباشرة. شرارات الغضب تتصادم بين وجهينا. ثم نكس رأسه وهو يقول:
- إذًا، لا بد للصبي الطائش أن يتأدب. انتظرني هنا.

غاب عنا لدقائق ثم عاد يحمل أوراقًا في يده. رمى بها أمامي، على الطاولة، وقال:

- هنا كل ما ستعود من أجله. أمل أن تفهم الدرس الآن.
لم أتحرك من مكاني، كنت أكبح كل الكلام في صدري وأقول لا أريد أن أجرحه.. فليته هذا اللقاء البائس كما انتهى قبله الكثير، وبعد ذلك لن أرى وجهه إلا حينما أنثر التراب على قبره.

جمع سعد الأوراق المتناثرة قبل أن يجلس بجانبني. زوجة أبي ذهبت للداخل، وفهد جاء خائفًا وجلس في حضني.
وبينما كان سعد يقلب الأوراق ليفهم ماذا يجري، لمحتُ صورةً على إحداها. جذبت الورقة بقوة؛ فشقت إلى نصفين. النصف الذي بقي في يدي، طبع عليه صورة لجواز سفر،

وبجانبه بيانات صاحبه.. كانت صورتك أنت.

صرخت دون وعي:

- ساره!



كما لو أنني آدم في أولى خطواته على هذه التربة الرطبة،
يصدق في الأفق السماوي ويسأل نفسه: كيف سقطتُ من
عليين

مشكلة الحبّ أننا لا نعرف بأي شكل يأتي، وبأي طريقة
يفادر، نحن في أرضه تائهون، نمني الروح بنهايات سعيدة..
فيحصل بعضنا عليها، والبعض الآخر يرى الوجه الحقيقي له،
حيث لا يجد سوى المزيد من الجراح.

ليس ثمة ذنوب تُمحي، وليس ثمة جراح تشفى. أما ذنبي؛
فقد كنتُ متطرفاً في حبك، وهبتك رוחي دفعةً واحدة ولم
أخف أن تسرقها في يومٍ ما. وأما جراحي التي ظننتك دوائها؛
فلم تجد سوى يدٍ تدميها.

ألم أخبرك أنني لا أجيد سوى القرارات الخاطئة؟ فهل
تدليني أين تحديداً كان خطئي معك؟

أليس من العار أن تنتهي كهذا؟ يا وجه الصباح، أين تكون صباحاتي الأخرى إن لم تكوني مشرقها، وأين أولي وجهي عن كل شمس يصلني ضوءها؛ فلا أشعر بشيء سوى البرد في داخلي. كيف أراجع الآن عنك وأنا الذي تلتصق بك روحه في حضورك، في غيابك، في لحظات سعدك، وفي أيام حزنك!

أود لو أقضي ليلة واحدة معك، أسكب فيها عمري كله، وأعلق على دقيقتها الأولى تعب السنين ثم أنساه في أحضانك.. فأصير كملاك لا يحمل سوى النور في داخله. تقولين لي: ضمني. فأسقط كقطرة ندى على أوراقك. تنامين على صدري.. وأظل أحكي لك حكاية غريبين ظنا أنهما يغيران بوصلة الحب إلى اتجاه جديد لم يسبقهما أحد إليه، حتى أضاعا بعضهما البعض، ولم يجدا طريقاً للعودة. ثم أصمت، تاركاً المجال لعيني تتأملك، تلتقط كل ملامحك، ما بين شفة غواية، وجفن نائم.. وخصلة شعر تمتد من رأسك وتستقر هناك على مفارق صدرك. تتمتمين باسمي وأنت نائمة؛ فأمسح على خدك الدافئ لأقول لك: إني هنا.. غارق فيك، لم أذهب لمكان آخر، سوى سفر سعيد في تفاصيلك الحلوة.

أركب بحارًا وأعانق سماواتٍ وتظلمن بجانبني.. حتى إذا
طلعت الشمس وليس في حوزتها دليلًا على جنون ليلتك
السابقة.. سوى رماد رجلٍ احترق وهو يودعك.



منذ لقائي الأخير مع أبي، وأنا في صمتٍ أبدي.. حجارة لا
تفهم سوى لغة السكون. مضت الأيام متتابعة، لا مبالية بحزنٍ
يخيم على قلبٍ في عالمٍ يتجاوز سكانه السبعة مليارات نسمة.
كانت روحي في عتمةٍ طويلة، وشعرتُ بأنني أفقد كل شيء:
صوتي الذي نسيت رنته، ووجهي الذي احتلته لحية مبعثرة لا
تشبه بشيء سوى الحزن، ونسيت الكلمات.. وكيف للإنسان
أن يشعر بالغضب، بالحب، بالحنين، وبالكره. دخلتُ إلى
متاهةٍ مظلمة، لا أبحث عن أحدٍ فيها، ولا يدور في رأسي
شيء داخلها. رغبتُ أن أصل سريعًا إلى يومي الأخير لي في
هذه الحياة، أدفع باب الخروج بقدمي، أدخل وألتفت إلى
الوراء؛ لأبصق عليه قبل أن أهوي إلى عمق النسيان.

عتمة الروح هي أقصى أداة للتعذيب قد عرفتها الإنسانية!
أعرف هذا لأن ليس ثمة طريق للنور.. ما إن تصل إليها،
وكل محاولة هي تكرار لمشهدا الأول، المشهد الذي كان

يأتي بصوت أبي، يخبرني عما فعله بي، وكأنه لم يكتفِ بأن يتجاهلني طوال حياته، وحين اهتم لأمرى، أفسد حياتي كلها: - هنا كل ما ستعود من أجله، أمل أن تفهم الدرس الآن. ساره... لم تكن حبيبة لك، ولم تحمل في داخلها أية مشاعر تجاهك. كانت تبحث عن خلاصها فقط، وجدتك فرصة للنجاة؛ فوافقت. تظن أنك التقيتها مصادفة؟ لا.. كان كل شيء يسري كما خطط له. لم أعرفها إلا حينما جاءت تتوسل إليّ بأن أعيد أخاها إليها، ولم يكن أخوها سوى مغفل اقترض مني مبلغًا كبيرًا من المال ولم يستطع الوفاء به. كانت هنا، بين أقدامى، مستعدة لأن تقبلها من أجل أن أتنازل عن أخيها. لم أكن لأفعل، حتى بلغني أنها كانت تدرس في أمريكا، وقطعت دراستها لتعود وتخرج أخاها من السجن. عندها فكرت بك، بابنك الذي لا تعرفه ولا يعرفك، ولكنه يعيش كل يوم على أمل أن تعود إليه. بكل بساطة، اقترحت عليها أن تذهب إليك، وأن تعود بك إلى هنا، حينها فقط ستنتهي معاناتها. وافقت شرط أن يخرج أخوها من السجن فور وصولها إليك؛ فلم أمانع. لقاءكم في المطار كان مخططًا له، راسلت جامعتك وطلبت منهم أن يوكلوا مهمة استقبالها لك بعدما أطلعني أحد موظفيها على نشاطك معهم، وبعد أن نال

نصيبه. في البداية.. لم أصدق أنها معك؛ فأرسلت لي صورة كنت تقف فيها أمام سيارتك في محطة الوقود، وطلبت مني أن أكمل جزئي من الاتفاق؛ ففعلت بعدما أخذت من أخيها اعترافاً خطياً يدينه بما لي عنده. خرج من السجن وظل معلقاً لا يدري متى أستخدم ما عندي ضده. ولكنه لم يعلم أن ساره قد تحملت عنه معاناته! يظن أنها عادت إلى غربتها الأولى. كانت رسائلها تنقطع، وحينما أحاول الاتصال بها لا أجد سوى هاتف مغلق. ظننت أنها قد هربت، وأنه حان الوقت لأزج بأخيها في السجن من جديد؛ فتوجهت إليه وأخبرته بأني أمهله شهراً واحداً ليدفع ما اقترضه مني. في يومها، اتصلت بي قائلةً إنها ما زالت معك، وأن شهراً إضافياً سيعطيني ما أردته. فقط عندما اتصل بي سعد ليخبرني أنك قادم في ذات الليلة، علمتُ أنها وفّت بعهدتها. قد تنكر كلامي هذا كله، هذا قرارك؛ فافعل ما تريد. لكن انظر لكل هذه الأوراق، ستجد فيها كل ما أخبرتك به.

*

يقول أخي سعد إنني في حالة اكتئاب، وأنه مرض كسائر الأمراض الأخرى، له علاج، لكن يجب عليّ أن أحاول. يسرد ما عنده من كلام حفظه من نافذة إلكترونية طبية ثم يودعني عندما يدرك أن لا فائدة له من كل ما يفعله، وأبقى واقفاً أحرق في النافذة الصغيرة، في شباكها الحديدي، وأعلم أنني أصبحت سجينها. أحمد

بكيت لمرة واحدة فقط.

حينذاك كان فهد يجالسني في غرفتي ككل يوم، يحكي لي عما فعله في يومه، يرجو أن يسمع كلمة مني، وثم يرحل حزيناً على أمنيته التي تحققت بطريقة مشوهة. لكن في تلك المرة لم يغادر، جلس أمامي ونظر إلي مباشرة، أدرك أن عيني شاردتان؛ فتبع وجهتها، ثم وقف أمام النافذة يحاول أن يصطاد نظرة مني، وحين أدرك أنه لن ينجح، تقدم نحوي ثم هوت كفه الصغيرة على وجهي.

نظرتُ إليه، كانت عيناه ممتلئتين بالدموع، انفجر باكياً ورمى جسده الهزيل فوقي؛ فبكيت، وبكيتُ.. حتى نسيت كيف أتوقف عن البكاء.

كل ما أشعر به الآن أنني عالق في برواز لحظة، لستُ أعيشها، ولستُ أفهم ما فيه، وليس ثمة أمر يدور في داخلي لها. تكبر تلك اللحظة إلى دقيقة، ثم ساعة، حتى تصبح أيامًا وليالي يتآكل فيها جسدي، وتمتصني أحزان إلى بوابات العدم.

لم يكونوا غرباء، أولئك الذين كسروني، كانوا دائمًا يسكنون القلب.

ولم أكن بحاجةٍ لأخسركِ حتى أدرك أنني واقع في مصيبة؛ فقد أخبرْتُكِ أن الكون في سلامٍ مديد منذ أن أحبتكِ، وفي جمالٍ مكتمل اسمه: عيناكِ.

وهذا كافٍ لأن أكون على خط الخطر دائمًا/ أن أفقدكِ، ويزول من فؤادي كل شيء يبقيني حيًا.



انقضى شهران وأنا في حالة اعتكاف على خسارتك..
خسارتي.

جاء إليّ سعد وقال:

- حرام ما تفعله بنفسك، أنت لا تنهي وجعك هكذا،
بل تمنحه فرصة بعد فرصة كي يتمكن منك. ألم تر نفسك
بالمرأة؟ لقد أصبحت شخصاً آخر. ألم يحن الوقت لتفيق
مما أنت فيه؟ كلمني غسان.

أود أن أجيئه، لكنني كنتُ قد ابتلعت كلّ الكلام، وهناك
معركة تجري في داخلي ولا يمكن أن أبالي لغيرها.
صمت لدقيقة، ثم أضاف وهو يفرك يديه غضباً:

- يا أخي، إن كنت تحبها بهذا الجنون فلم لا تذهب إليها؟!
لا يبدو أن كل ما عرفته عنها مثال ذرة أمام هذا التعلق الذي
يلقي بك سجيناً لهذه الغرفة، وأعلم لو أنها رحلت من قلبك
منذ تلك الحادثة، لما ظلت هنا. نادية من قبلها.. حينما كان
قلبك خالياً من الجراح، أدمته حتى أصبح كقطعة ميكانيكية،

تعمل فقط ولا تشعر بشيء، ولكنك وجدت مخرجًا لذلك،
لقد هربت. قد تلقيت لكماتٍ كثيرة في حياتك، وأعترف أنني
لم أكن بجانبك عندما كنت تتألم منها... ولكني هنا الآن يا
غسان. لن أدعك تغرق أكثر. قمّ معي الآن... لنبحث عنها!
التفت عليه وكأنه قال أمرًا يستحق أن أستيقظ من أجله.
نظر إليّ وهو يضع كفيه على وجهي، وقال:
- نعم؛ فلنبحث عنها يا غسان. لنضع نهاية لهذا الدمار.

*

تحدثت إلى سعد للمرة الأولى عندما كنّا في طريق بري من
الرياض إلى الدمام. الليل يكتسي السواد، وأضواء السيارات
القادمة في الاتجاه المعاكس تعميني، والأغنيات تندفق واحدةً
تلو الأخرى على موجة المذياع.
حينذاك، سألتني عنك.
- أخبرني، كيف تبدو؟ على الأقل أعرف لمن نتكبد هذه
المشقة.

صمتُ لبرهة، لم أكن أرغب بالحديث، حتى عبرتني
كلمات تلك الأغنية، «لحن قلبي»، من أثير المذياع، فكان
شيئًا من النور قد ثقب صدري المتهالكِ ظلمةً.

عادت ذاكرتي إلى مواضعها السابقة، وانسل شريط
الذكريات الطويل، والذي لم يكن به سواك. أخذني إلى ذات
الأغنية، ولكن في مكان آخر، في صباح بعيد حيث بدأ به كل
شيء... ونطقت:

- ساره متوسطة الطول، حين تقف بجانبني يصبح كتفي
وسادة لرأسها. شعرها أسود كثيف، حين ينسدل على ظهرها
يكون هناك عناق أزلي للسماوات، لصبحها ومسائها. حين
أنظر إلى عينيها؛ أجد دليلاً جديداً بأن من صنعها لا يمكن
أن يكون سوى ربّ واحدٍ أحد. تضع كفها على ثغرها كلما
ضحكت، ولو أنها لا تفعل هذا لوقع في غرامها قبيلةً كاملة.
تتورد الزهور على شفيتها، وتهجر الطيور مساكنها لتقف على
غصنٍ واحد يطل على نافذتها. كلما أحبتها أكثر؛ تمهدت لي
سبل النجاة، وعثرتُ على إجابةٍ لمعضلة غربتي، وضياعي،
وحزني.

قاطعني سعد قائلاً:

- يكفي... يجب أن نعثر عليها!

*

عندما وصلنا إلى مدينة الدمام، كان الوقت متأخرًا لنجوب الشوارع بحثًا عنك.

اقترح سعد أن نرتاح في أحد الفنادق ونخرج صباح اليوم التالي؛ فوافقت. استلقيت على السرير تلك الليلة وفي رأسي ألف احتمال، أقلهم قسوة هو أن أراك غداً.

*

كان البحث عنك أشبه بالتعلق بفكرة خاطئة، ورغم أنني أدرك فداحة الخطأ، أتقدم نحوه بلا قلق.

من بيتٍ إلى بيت، ومن أملٍ إلى آخر، طرقت الأبواب، ولم نجد أحداً يدلنا عليك. كان أخي سعد يتولى مهمة السؤال، وأبقى مختبئاً خلفه لئلا تظهر من وراء باب؛ فاستحيل إلى رماد.

العنوان، الذي كتب على تلك الأوراق التي أعطاني إياها أبي، يقول أننا في المنطقة الصحيحة، لكن لا أحد يعرف اسمك الأخير. ظننت أنه قد يدلنا على أخيك على أقل تقدير، ومن هناك أجذك. حين ارتفع أذان صلاة الظهر، كان اليأس قد سكننا. بعد أن سكن النداء، التفت إليّ سعد قائلاً:

- الآن عرفت أين نجدها! في بيت الله!

توقفنا أمام مسجدٍ صغير. كانت خطة سعد الطارئة أن نسأل

عن أخيكِ لدى إمام المسجد. قال: إنها أفضل محاولة تبقت لنا.

كان الماء يجلي أجزاء صغيرة، متناثرة، من أحزاني. منذ مدة طويلة لم أتوجه إلى الله، وأجدي الآن أفعل كغريقٍ يسبح باسمه، ويسأله النجاة من بحرٍ يبتلعه. كانت تقول لي أمي أن في كل سجدة إلى الله بابٌ يفتح لإجابة الدعوات؛ فصرتُ أُلَفِّظ اسمكِ بخوفٍ من أن يحاسبني الله على لحظاتٍ ابتعادي عنه.

انتهت الصلاة، وانفضت جموع المصلين. رأيت سعد يتوجه نحو إمام المسجد المعتكف على سجاداته؛ رفعت يديَّ صوب السماء وتحدثتُ إلى الله: يا رب، تعلم ما في داخلي من رجاء، ومن أمل بات يكبر منذ شعرتُ أنني أسامحها على كل شيء. أغفر لها ما فعلته، وما تركتني له؛ فاغفر لي واصفح عن تقصيري. أسألك يا مرشد الباحث عن ضلّالته، أن تدلني عليها

بعد لحظات قليلة، جاء نحوي سعد. نظرتُ إليه، فهمس لي قائلاً:

- لن نجدّها هنا.



ليتني أستطيع سدّ منافذ قلبي، ولملمة شريط ذكرياتي،
وأعود هاربًا إلى الحياة؛ فقد تعبْتُ من هذا الارتطام ولم يعد
في رثيِّ نفس واحد يقدر على المواصلة، أو الصمود أمام
جرثومة الحزن التي تنخر روحي.

كانت العزلة دافعي الوحيد للكتابة إليك، وكنت أكتب
ما يمليه قلبي، لا ما أريدك أن تقرّئه. ثم وجدتُ في الكتابة
نافذة خلاصي؛ فأصبحتُ بها أخف وطأة وحدتي، وأتحايل
بوجودها لئلا أعود إلى طاولات الحديث.

تسوقني العبارات من سطرٍ إلى سطرٍ كأنني في حضرة الكتابة
لا يمكن لي سوى الانصياع، وكلما حاولت التوقف انهمرت
دمعة على خدي وأبقى منتظرًا أن تأتي وتمسحي أوجاعي.

بات لا يهمني أن أعرف مع من تقضين أيامك، ومن يسكن
فؤادك، ومن يضمّك إلى صدره لتهدئي، ومن يبكي عينيك
جنونه، ويملأ فراغات أصابعك بيده.. إني أنسى ما كنا عليه،
وما أردت أن نصير إليه، ولكن يبقى في داخلي صوتٌ ينادي:
أغداً ألقاك؟

أحنّ إلى ذلك التخدر اللطيف كلّما سقط رأسك على
كتفي، وأحنّ للحظة تدخلين فيها إلى قلبي وأغلق بابَه عليك؛
أنا الذي لم يعرف أن لصدره بابًا حتى هجرته.

أيكفي أن أعيد إليك كلّ عناقٍ أدفأنا، كلّ أغنيةٍ أخذتنا إلى
سلاالم الحبّ، كلّ قبلةٍ تاهت بنا عن طريق الوحدة.. كلّ تحيةٍ
نشرت على وجوهنا الوئام، وكلّ لحظةٍ جمعتنا، لأتخلص
منك، وأعود إليّ؟!

أعود إليك كلما أردتُ أن أنسى. في حالة انفصام مشاعر.
أثابر في مقاومة ظلّ الكلمات، وأضع بيني وبينه شمعةً
صغيرة.. تنطفئ الشمعة، وأغرق في سواده. أيتها المنبثقة
في ذاكرتي، صورة وجهك عالية الرقة؛ فكيف لا أتوه وأتعرّ،
وكيف لا أعود إليك ووحدي كلمة السر للحياة؟!

ولا أفهم معنى أن أبقى في حالة انتظار! إنه لوجع أن أكون
وحيداً في غيابٍ ممتد؛ فسكة الحبّ مهجورة، وخطوط الوله
مقطوعة، وعيناي من شدة دمعها كأنها غيمةٌ في شتاءٍ مأسورة.
لا بأس بهذا! أجيبني فقط: أغداً اللقاء؟

مضى على آخر عناقٍ بيننا ٢٩٠ يوماً

٩ شهور ونصف،

٤١ أسبوعاً

٦٩٦٠ ساعة

و ٤١٧٦٠٠ دقيقة

كلها تساقطت من شريط حياتي، أنا الذي لا يكبر إلا بك.

أغفر لك، ولست أدري أيّ ذنبٍ جمعنا، وبأيّ شعورٍ
رحلت مني. أغفر لك ما نسيت أن تحمله معك إلى غياهب
الفراق.. وما وضعته فيّ وأنت تنوين الابتعاد.
سلام الله على عينيك.. هذا فراقٌ بيني وبينك! قد جنيتُ
ثمار حبك علقماً، وأنا الذي كان من مياه قلبه يرويك.
اليوم أرسل لك حكايتي، ولم يكتب الله بها أمراً يستحق
القراءة سوى... أنت.

«غسان»



هممت بإرسال الملف النصي عبر البريد الإلكتروني إليها.
ضغطت على زر الرفع لأرفق الملف، وعند خانة «عنوان
الرسالة» توقفت كثيراً. فكرتُ أن أدعه فارغاً؛ فخفت أن يذهب
إلى صندوق الرسائل المهملة، ولا تنتهي لرسالتي. في لحظةٍ
واحدة كتبت العنوان: «سلام الله على عينيك».
ثم ضغطت على زر الإرسال.

انبثقت نافذة صفراء صغيرة على الشاشة، تقول أنه لا
يوجد اتصال بالإنترنت لكي تُرسل. خرجتُ لأتفحص الأمر..
وعندما عدت، وجدتُ رسالةً على هاتفي. كانت من أثنوني:
«ساره هنا... ألن تأتي؟»

تَمَّتْ.

۸-۸-۱۷-۲۰۲۰م

للتواصل مع الكاتب:



iMohammedB

سَلَامُ اللَّهِ عَلَى عَيْنَيْكَ

لم أكن أظن أني في يومٍ ما قد أكتب إلى امرأةٍ قد سكنت صدري، حتى أصبحت عيناها راحتي وهلاكي، ولم يدر في خاطري يوماً أني أقع في شباك الحبِّ ولا أملك سوى الاستسلام. أكتب إليك اليوم وفي عيني بحر من الدمعات، وألفُ رايةً للحنين.

لا أحبُّ لعبة الكلمات، وتفسيراتها، وطريق الكتابة الغارق في المعاناة، لكنني أجد نفسي مجبراً أن أخطو إليك عبرها، وأن أضع ما يثقل أيامي بالحزن والقلق على ميزانك.. سائلاً إياك أن تحلي قضيتي، وتعدي بي بين ما سرقه الغياب من أحضان، ونظرات، وصوتٍ كان يبعث في مهجتي الأفراح.

لم أدرك كم هو قاسٍ هذا الغياب! ومعنى أن أتوه في خرائط الحنين، أبحث عن مخرج يدلني عن نصفني الآخر، ذلك الذي أضعته دون أن أدري، وكيف أن تاريخي يستحيل إلى لحظاتٍ معدودة، تغيب فيها كل الوجوه ويبقى وجهك خالداً بها.

تخيلتُ حياتي لو أني لم ألقاك؛ فلم أجد سوى صورةً لوجهٍ كئيب يعيش في قوقعة من حزن.. ليس لديه غاية واحدة سوى الهروب من كل ما تعلق في ذاكرته. أنا من صالحتي الأيام عندما وضعتك في طريقي.

محمد السالم



iMohammedB

ISBN 978-603-90968-5-6



9 786039 096856

تشكيل
TASHKEEL
للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution
@Tashkeell